

المرأة

بين الجاهلية والإسلام

الأسوة والقدوة

الشيخ

محمد جعفر شمس الدين

دكتوراه في الشريعة والقانون

دار الهادي

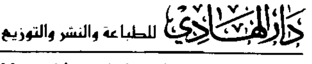
المرأة
بين الجاهلية والإسلام
الأسوة والقدوة

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دار الهادي

ISBN
978-9953-503-78-3

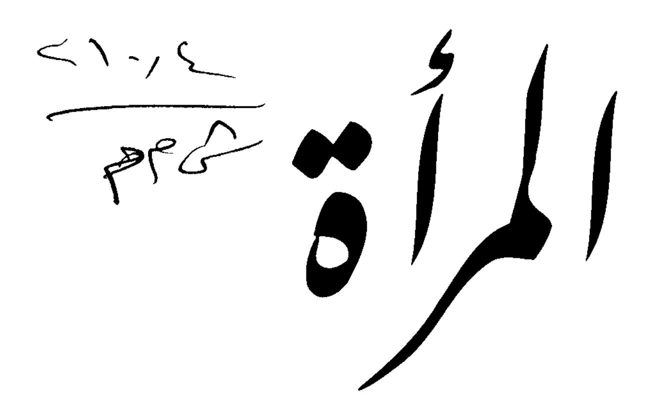




هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com



بين الجاهلية والإسلام
الأسوة والقدوة

د. الشيخ
محمد جعفر شمس الدين
دكتوراه في الشريعة والقانون



للطباعة والنشر والتوزيع



المقدّمة

ظاهرة انتشار الصورة الفاجرة، والكلمة الداعرة.

وظاهرة الانفلاش الأخلاقي، وموجة الإباحية في مجتمعاتنا.

أضِفْ إلى ذلك امتهان الأُنثى إلى درجة جعلها مادة إعلانية في الصحف والمجلات، وعلى الشاشتين الكبيرة والصغيرة بشكل مقزِّز للنفس الفاضلة.

وخطورة انخداعها بأسطورة المساواة مع الرجل، وأسطوانة تحرير المرأة، وأبواق دعاة الإباحية بالقول والعمل، الذين ينفذون عن قَصْد أو غباء مخططات بروتوكولات الصهيونية لتدمير الأخلاق في العالم، وبخاصة عالمنا العربي والإسلامي، والقضاء على ما تبقّى من قِيَم، وروابط أُسرية، وعلاقات إنسانية واجتماعية.

من أجل كل ذلك، ومن أجل رسم صورة صادقة لِما يراد ببناتي وأخواتي المسلمات، وكشف الغطاء عن السم الذي يداف لهن في العسل.

ولكي يعَينَ موقعهن في منطق الإسلام، وموقف هذا الدين الحنيف منهنَّ، فيَعُذْن إلى كَنَف حِضْنه، وواحة أمنه، وسط هذه الصحراء الجدباء القاحلة التي لا أمل فيها بحياة كريمة وبحدٍّ أدنى من طمأنينة واستقرار. علّهن يتمسَّكن بمبادئه السامية، فتعود إليهنَّ كراماتهنَّ

المهدورة في ظل جاهليّة ظالمة مُسِفَّة، ويخرجن من ظلام بغيض، ومرعب، إلى نور ينبثق من مِشكاة إلهية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

من أجل كل ذلك، كتبت هذه الصفحات، التي تتمحور حول المرأة في عصرنا، وموقف الإسلام منها، صوّرت فيها بصدق وحرص، ما صار إليه حال نسائنا اليوم، نتيجة انسياقهنَّ وراء الدعوات الهدّامة والشعارات المضلّلة، التي يسوّقها ويرفعها شياطين الأرض، ليبعدوهنَّ عما أراد لهن دينُهنَّ أن يكنَّ عليه: صانعات للأجيال، وشقائقَ للرّجال، ورائدات معهم جنباً إلى جنب في مسيرة البشرية الطويلة والشّاقة نحو التسامي والكمال، وصولاً إلى إقامة المجتمع العابد في الأرض، تجلببُهُنَّ الفضيلة، وتسدّدهم ـ رجالاً ونساءً ـ كلمة السماء.

فأرجو أن أكون قد وفّقت إلى ما رمَيتُ إليه، والله من وراء القصد.

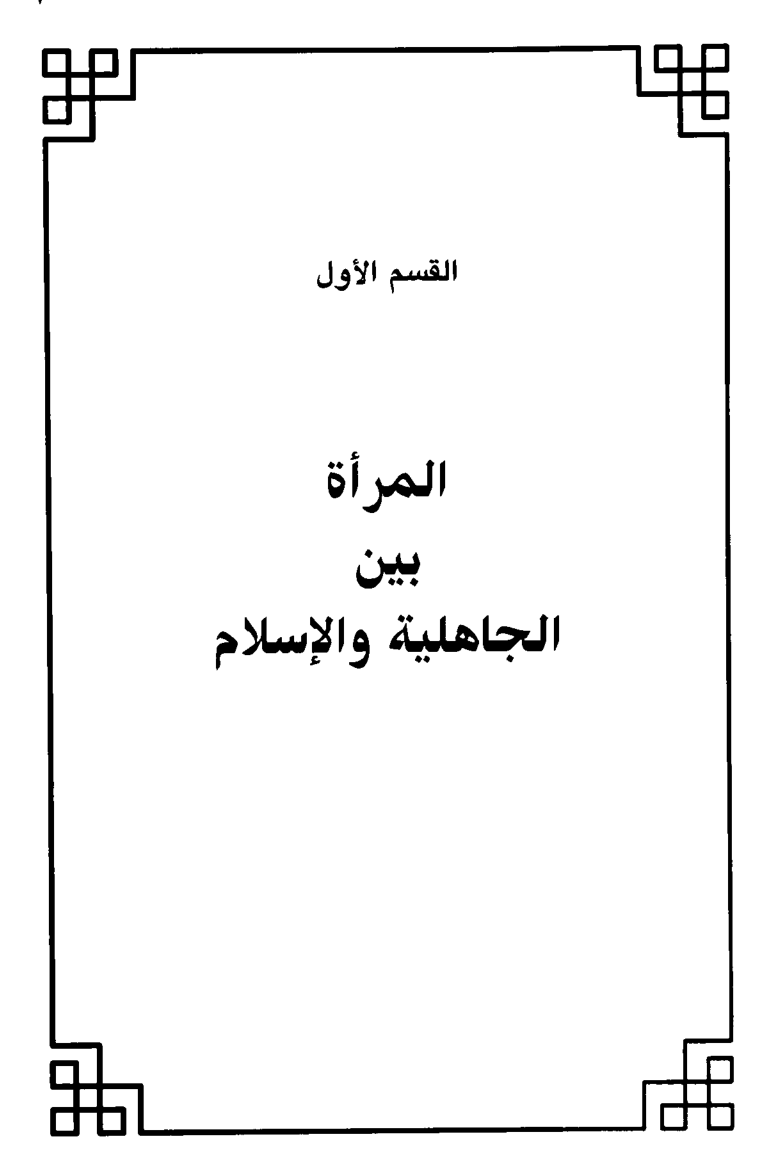
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

محمد جعفر شمس الدين

---

(١) سورة النور/ ٣٥.

(٢) سورة فُصّلَت/ ٣٣.



القسم الأول

المرأة
بين
الجاهلية والإسلام

- ١ -

إطلالة على التاريخ ماضياً وحاضراً

من المفيد أن نستعرض من خلال لمحات خاطفة، بعض صور تعكس وضع المرأة عموماً في مجتمعات إنسانية مختلفة في الشرق والغرب، لنتبيّن على ضوئها الحالة المذلّة المزرية لهذه الإنسانة قبل الإسلام، وبعده أيضاً، منذ القرون الوسطى وحتى يومنا هذا.

وفي اعتقادي أن مثل هذا الاستعراض - وإن موجزاً - يمنح القارئ قدرة على المقارنة بين ما كان واقعاً قائماً تتخبط فيه المرأة، ليخلص إلى نتيجة حتمية، بأن الإسلام قد استنقذ المرأة من هوّة ذاك الواقع، وأعاد إليها كرامتها الإنسانية وحقوقها المستباحة المهدورة.

أ - في العصور القديمة

ورد في العهد القديم[١]؛ «دُرْتُ أنا وقلبي لأَعْلَمَ ولأَبْحَثَ ولأَطلبَ حكمة وعقلاً، ولأعرفَ الشرَّ أنه جهالة، والحماقة أنها جنون، فوجدتُ أَمَرَّ مِن الموت المرأة التي هي شِبَاك، وَقَلْبُها أشراك، ويداها قيود، الصالح قدّام الله ينجو منها، أما الخاطئ فيؤخذ بها... رجلاً واحداً بين ألف وجدتُ، أما امرأةً فبين كل أولئك لم أجد..».

---

(١) سفر الجامعة، الإصحاح السابع/ ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨.

وقد نسجت المسيحية الرسمية في العصور التالية على هذا المنوال في نظرتها إلى المرأة.

يقول القديس ترتوليان:

«إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، مشوِّهة لصورته»؟!.

ويقول القديس سوستام عنها:

«إنها شر... وآفة... وخطر على الأسرة والبيت... ومصيبة مطليّة فتّاكة مموّهة»!!.

وفي مجمع ماكون، في القرن الخامس للميلاد (قبل ولادة محمد ﷺ) بُحثت مسألة: هل توجد روح للمرأة؟

وكان قرار المجتمعين: إنها خلو من الروح الناجية، غيرَ السيدة مريم عليها السلام؟!

وكان موضوع المؤتمر الذي عقده رجال الدين المسيحي في فرنسا عام ٥٨٦ للميلاد، هو: هل المرأة إنسان أم غيره؟. وكان قرارهم أنها إنسانة خُلقت لخدمة الرجل!؟.

وكان كونفوشيوس (ت ٤٩٨ ق. م) يكره النساء، ويرجع إليهن أسباب كثيرة مما ابتليت به الإنسانية من شقاء(١).

وفي المانوية وهي أيضاً من أديان الهند، لا يحق للمرأة أن تعيش بعد موت زوجها، بل يجب إحراقها معه وهي حيّة.

---

(١) ذيل كتاب الملل والنحل للشهرستاني. بقلم محمد سعيد كيلاني، ص ٢٥. وكونفوشيوس صاحب مذهب الكونفوشيوسية أحد أديان الهند الكبرى.

وفي بعض الشرائع الهندوسية أن المرأة أسوأ من السمّ والنار والجحيم، والموت والريح والأفاعي.

وفي شريعة حمورابي، كانت المرأة ملكاً لزوجها، تحسب من جملة ما يملكه من ماشية. وتنص على أن من قتل بنت رجل، فعلى القاتل أن يقدم ابنته لأبي القتيل ليقتلها أو يمتلكها.

وعند اليونان، كان ينظر إلى المرأة على أنها شيء لا شخص. تُعرض في السوق كسلعة للبيع، لا تملك أية حريّة، وليس لها أية حقوق، فلا ميراث لها، يزوّجها أبوها لمن يشاء دون أن يكون لها خيار. وإذا كان لديها أموال فهي ممنوعة من إدارتها أو التصرف فيها من دون إشرافه أو موافقته.

وعند الرومان، عقد «مجمع كبير وبحث في شؤون المرأة، فقرر أنها كائن لا نفس له، وأنها لن ترث الحياة الأخروية لنفس العلة، وأنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم، وأن لا تضحك بل ولا تتكلم، وعليها أن تمضي أوقاتها في الصلاة والعبادة والخدمة، ولأجل أن يمنعوها من الكلام، جعلوا على فمها قفلاً من حديد، فكانت المرأة من أعلى الأُسَر وأدناها تسير في الطرقات، وتروح وتغدو في دارها وعلى فمها قفل. هذا غير العقوبات البدنية التي كانت تتعرض لها باعتبارها أداة للإغواء يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب»[١].

وكانت سلطة الرجل عند الرومان على زوجته وأبنائه إناثاً وذكوراً تمتد حتى موته.

---

(١) روح الدين الإسلامي. عفيف عبد الفتاح طبارة، الطبعة العاشرة، ص ٣٥٧.

وكانت هذه السلطة مطلقة، تمتد لتتراوح بين البيع والقتل.

ولا يمكن للأنثى من أولاده أن تتخلص من هذه السلطة، إلا بأن تبرم زواجها على رجل تبرم معه ما يسمى بعقد السيادة، فتبيعه نفسها بمبلغ من المال.

ب ـ المرأة العربية قبل الإسلام

وإذا انتقلنا لنستطلع ما كانت عليه المرأة العربية في جاهلية ما قبل بزوغ فجر الإسلام، وجدناها لا تقل شقاءً وتعاسة ومذلّة عن المستوى الهابط للمرأة في العصور التي تحدثنا عنها قبل قليل.

وجدناها لا تملك حقاً في تقرير مصير، ولا حرية للتعبير عن مشاعرها كإنسانة لها وجود وكيان وأحاسيس، وإنما كان مصيرها يتقرر على ضوء عادات منحرفة، وقيم مسفّة، أملتها مواضعات فاسدة لتجمع هابط، نسجت خيوطه عقلية توجِّهها الغرائز، وتسوقها وتحدوها طبيعة جلفية قاسية، ومتقلّبة كتقلّب كثبان الرمال في الصحراء الملتهبة تحت وطأة الأعاصير الهوجاء، ما إن تزيل معالم هنا، حتى تنشئ معالم هناك. فيتخبط السالك فيها على غير هدى، ويضلّ بين فيافيها المخيفة، أو تبتلعه رمالها المتحركة.

إنها باختصار، وفق هذه الرؤية، بين ضياع أو هلاك، ماديّ وروحيّ.

ومن أجل استشراف معالم هذا الواقع الحزين الذي كانت تعيش فيه المرأة العربية قبل الإسلام، يكفي أن نعرض بعض صوره، متوخّين الإيجاز في العرض، ومستكشفين بإيجاز أيضاً كيف مد الإسلام للمرأة

العربية يده الحانية، لينتشلها من الهوّة التي كانت قد تردّت فيها، فيعيد إليها إنسانيتها السليبة، وكرامتها المهدورة، وحقوقها المنحورة.

١ ـ لقد كان العرف السائد لدى كثير من القبائل العربية، هو التشاؤم بالأنثى، والحزن لولادتها، والخوف من أن تجلب عليه الفقر أو العار، والخجل من قدومها، مما يدفع المولودة له أن يتوارى من الناس، أو يقتلها وأداً في رمال الصحراء. بل قد يئد حتى الذكر خشية العَيْلَة.

وقد حكى القرآن الكريم عن هذا الواقع الجاهلي، منددّاً به ومحرّماً له أشدَّ التحريم، قال تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾(١).

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا الْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾(٣).

---

(١) النحل/ ٥٨، ٥٩. والهُون: الذُلّ.
(٢) الإسراء/ ٣١. والإملاق: الفقر.
(٣) التكوير/ ٨. ووأدُ البنت: دفنها حيّة.

وقال تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[1].

٢ ـ وكان من الأعراف السائدة في الجاهلية العربية، أن الرجل إذا كره زوجته ونفر منها، وأراد ـ بحكم تكوينه الجاهلي ـ أن يشفي غَيْظَه، فإنه كان يجد لذة كبرى في امتهان كرامتها، وإشعارها بالتأرجح بين الذلة والصغار والتمزق، كيف؟

كان يطلّقها، فإذا قاربت عدّتها على الانتهاء، أرجعها إلى الزوجيّة، ثم طلّقها من جديد، وهكذا إلى ما شاء له غروره، وأملته عليه جاهليته من مرّات الطلاق، والرجوع.

حتى جاء الإسلام.

وكان يوم اختلف فيه رجل من الأنصار مع زوجته، واغتاظ منها، وأراد الكيد لها، فقال:

«واللهِ، لا آويك، ولا أفارقك. قالت له: وكيف ذلك؟. قال: أطلّقك، فإذا دنا أَجَلُك، راجَعْتُكِ». فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ. فأنزل الله ثلاث آياتٍ في كتابه المجيد:

الأولى والثانية: يحدّد فيهما الطلاق بعدد معيّن، إذا وصل إليه الزوج، حرمت زوجته عليه حتى تنكح زوجاً غيره. قال تعالى:

﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ

(١) الأنعام/ ١٤٠.

حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾[١].

والآية الثالثة: يحرّم فيها هذا الفعل الجاهلي بأسلوب قرآني مهيب، عندما يتأمل فيه الإنسان، يدخل في نفسه الرَّوع، وتأخذه الخشية من عقاب الله، والرهبة من نَكاله، فيرتدع ويتأدّب:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾[٢].

فلاحظ معي هذا الحنوّ في التعبير القرآني، حيث اعتبر مَن يُقدِم على هذه الفعلة مع زوجته ظالماً لنفسه، مع أنه بحسب ما يتبادر إلى الذهن بلحاظ قصده ظالم لغيره وهو زوجته، ففي التعبير القرآني إشارة إلى أن الزوجة في الإسلام ـ كما سبق ـ مُنَزَّلة منزلة نفس الرجل، بل هي نفسه، كما يوحي بذلك قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا...﴾.

وقوله تعالى:

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ...﴾.

فيكون على هذا، ظِلمه لها، في نفس الوقت، ظلماً لنفسه حقيقة.

---

(١) البقرة/ ٢٢٩، ٢٣٠.
(٢) البقرة/ ٢٣١.

٣ ـ كما كان العرف الجاهلي، يقضي بأن الزوجة المطلّقة، لا يحق لها أن ترجع إلى نفس زوجها، حتى ولو تراضيا فيما بينهما على الرجوع كل منهما إلى الآخر.

بل كان أهلها وأقاربها يمنعونها من ذلك، متحكمين في مصيرها، غير مصغين إلى صرخات الألم المختنقة في أعماقها، ولا مبالين بتمزقها بين عادات متعنتة تتوافق مع غلظة الجاهلية وجفائها، وبين نداء الجسد والروح معاً، بالحنين إلى بيتها الزوجي، بما قد يحتضنه من ذكريات حلوة، وأحبّة صغار.

ولعل ما أورده بعض المؤرخين(١)، عن مَعْقل بن يسار، يصوّر ما نحن بصدده أدق تصوير.

لقد زوّج معقل هذا أخته لرجل من المسلمين في عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلّقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدّتها، فَهَوِيَها وهَوِيَته، ثم خطبها مع الخطّاب. فقال له أخوها: يا لكع ابن اللّكع، أكرمتك بها وزوّجتكها فطلّقتها، والله لا ترجع إليك أبداً.

فعلم الله حاجته إلى زوجته، وحاجتها إلى رَجُلها، فأنزل سبحانه قوله:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

فلما سمع مَعْقل هذه الآية قال: سَمْعٌ لربي وطاعة.

---

(١) راجع هذه الواقعة في كتاب ظلال القرآن، لسيد قطب، المجلد الأول، ص ٢٠٦ وما بعدها.
(٢) البقرة/ ٢٣٢.

ثم دعا زوج أخته السابق فقال له: أُزَوِّجُكَ وأُكْرِمُكَ.

وبذلك، ارتفع عن المرأة السيف المسْلَط الذي كان يهددها باستمرار، إن هي تجرأت على التدخل في شأن تقرير مصيرها، ويعضلها من أن يكون لها رأي فيما يختاره ذووها لها من مصير أسروي.

وكانت هذه الآية المباركة من سورة البقرة في القرآن، والمتضمنة هذا الحكم الإلهي، الضوء الأخضر لها، لتمارس أبسط حقوقها في الحياة، وهي في نفس الوقت، الضوء الأحمر، الذي ينذر كل من تسوّل له نفسه ـ قريباً كان أو بعيداً ـ أن يقف في وجه ممارستها لهذا الحق، في حدود كلمة الله وأحكامه، مع زوجها السابق:

﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٤ ـ وأخيراً، لا آخراً، كان من جملة الأعراف الفاسدة في الجاهلية العربية بالنسبة للمرأة المتوفى عنها زوجها، عُرف يتراوح شدةً وضعفاً، وهو في كل حالاته، لا يخرج عن حدود التخلّف والجريمة والتحكّم.

فمن أشكال هذا العُرف الجاهلي[١]، ما كان يحكم بوجوب إحراق الزَّوجة الحيّة مع زوجها الميت، أو دفنها معه حيّة كذلك.

أو يحكم بمنعها من الزواج بعد موت زوجها مطلقاً.

أو يحكم بمنعها من أن تتزوج قبل مرور سنة من وفاة زوجها، أو تسعة أشهر، أو مدّة من دون تحديد.

وهذه الأشكال كلها في الحقيقة، هي انتقاص لكرامة المرأة،

(١) راجع تفسير الميزان، للسيد الطباطبائي، ٢/ ٢٥٤.

وإنسانيتها، وتحكّم في مصيرها، من دون أن يكون لها أمام هذه الأعراف الفاسدة، أية قدرة على تحدّيها، أو رفضها، أو حتى مجرد الاعتراض عليها.

وجاء الإسلام، مشرّعاً لحكم، أعطى من خلاله الحق للمرأة المتوفى زوجها أن تقرّر مصيرها، ولكن بعد مرور مدّة محدّدة أسماها الفقهاء بعدّة الوفاة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام لا تزيد ولا تنقص، وقد تضمنت هذا الحكم بكل وضوح الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١].

مع التنبيه على أن تحديد هذه العدّة بأربعة أشهر وعشرة أيام للمتوفى عنها زوجها، هي فيما إذا لم تكن حاملاً منه عند الوفاة، أما إذا كانت كذلك، فعدّتها أبعدُ «الأجلَين من هذه المدة ووضع الحمل، فتستمر الحامل في عدّتها إلى أن تضع، ثم ترى، فإن كان قد مضى على وفاة زوجها حين الوضع أربعة أشهر وعشرة أيام فقد انتهت عدّتها، وإلاّ استمرت في عدّتها إلى أن تكمل هذه المدة»[٢].

كما يجب على المرأة المتوفى عنها زوجها الحداد أثناء العدّة، وذلك بأن «تترك في فترة العدّة كل ما يُعَدّ زينة للمرأة بحسب العرف الاجتماعي الذي تعيشه، ومن المعلوم اختلافه بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة والتقاليد»[٣].

---

(١) البقرة/ ٢٣٤.
(٢) السيد السيستاني: منهاج الصالحين، ٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٣) م.ن.

اعتراض ودَفْع

وهنا، قد يعترض معترض فيقول:

ألا ترى أن في جعل الإسلام مدة محدّدة للمرأة المتوفى عنها زوجها، أسماها بالعدّة، حرّم عليها أن تتزوج قبل انقضائها، بل أكثر من هذا، أوجب عليها فيها الحداد على زوجها، تحكّماً في المرأة، وحدّاً من حقها في تقرير مصيرها ولو لهذه المدة المحدودة؟

ثم، أليس في ذلك تماثل في الموقف بين الإسلام، وبين ما انتَقَدْتَهُ من موقف الجاهلية العربيّة؟.

والواقع، أن مثل هذا الاعتراض ضعيف إلى درجة أنه لا يقوى على الصمود عند أول نظرة متأملة توجّه نحوه، وذلك:

أولاً: أين المماثلة بين تشريع الإسلام لعدّة الوفاة، وبين ما تعارفت عليه الجاهلية العربية.

بل كيف يجوز أن ندّعي مجرّد دعوى مثل هذا، ونحن نرى أن الإسلام في هذا الحكم، لم يقف موقفاً متحكماً بالمرأة أو ظالماً لها. بل وقف منها موقفاً فيه عدل، وفيه حكمة، عندما حدّد العدة بمدّة لا تتجاوز مئة وثلاثين يوماً لا تزيد ولا تنقص.

بينما الأشكال الأخرى لموقف الجاهلية العربية، راوحت بين الحكم على المرأة بالموت عند وفاة زوجها، إما بإحراقها حيّة معه، أو دفنها حية كذلك. وبين أن تنتظر بعد موته سنة أو تسعة أشهر، أو مدة غير محدّدة من الزمان، لا يعلم إلا الله متى تنتهي، تموت أثناءها المرأة موتاً بطيئاً بفعل الضَياع والقلق والفراغ، ونداء الجسد بإشباع ضرورة الشهوة فيه؟!.

ثانياً: إن الجاهلية العربية، عندما حتمت على المرأة أن تنتظر بعد موت زوجها مدّة تتراوح بين السنة والتسعة أشهر، أو مدّة غير محدّدة، إنما كانت تتحكّم وبشكل قَبْليّ بمصير هذه الأنثى بما لا يمكنها دفعه أو رفعه، وليس لها أدنى تأثير فيه، سواء كان زواجاً من رجل لا تريده، أو كان بقاؤها وحيدة بلا زواج أبداً ظلماً وعدواناً.

فقد روي إنّ من عادات الجاهلية إذا مات زوج المرأة وكان له ولد من غيرها، ألقى ثوبه عليها قائلاً: «ورثتها كما ورثت ماله» وبذلك يصبح له الحق بمقتضى هذا العرف الجاهلي أن يتزوجها إذا شاء، أو زوّجها لمن يشاء وأخذ مهرها لنفسه، بل الصحيح أنه يصبح أحق بها من نفسها، وله أن يحرّم عليها الزواج حتى ترضيه بمال ليسمح لها بالزواج، أو يتركها حتى تموت فيرثها.

فنزل القرآن الكريم محرّماً ذلك كله، وناهياً عنه أشد النهي، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ. . .﴾[١].

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[٢].

هذا ما كان عليه حال الجاهلية العربية، بالنسبة لمصير المرأة

---

(١) النساء/ ١٩.
(٢) النساء/ ٢٢.

المتوفى عنها زوجها بعد اعتدادها، بل قبله أيضاً، مصير لا يد لها في صنعه أو تغييره.

في حين أن الإسلام قد جعل لها من خلال تشريعه، الحق المطلق في أن تفعل بنفسها ما تشاء ـ ضمن حدود المعروف ـ فيما لو خرجت من عدة الوفاة المحدّدة لها في النص القرآني:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

ثالثاً: إن الإسلام عندما شرّع العدّة للمرأة مطلّقة كانت أو متوفّى عنها زوجها، قد لحظ حكمة سامية لم ترد في أذهان الجاهليات مطلقاً.

وهذه الحكمة، تنسجم مع منطلقه الفكري بضرورة حفظ صراحة الأنساب، وطهارة المواليد، مع ما لذلك من آثار إيجابية في نظافة المجتمع، بحيث يعرف كل ولد أمّه وأباه، والعكس صحيح أيضاً.

وللتأكد من ذلك، كان لا بد وأن يُسْتَبْرأ رحم المرأة من زوجها الأول، إذ لعلها كانت قد حملت منه قبل الطلاق أو الوفاة، فإذا تزوّجت رأساً بعد حصول أحدهما، يكون هذا سبباً في انتساب الحمل إلى الزوج الجديد، مع أنه في الحقيقة ولد الزوج السّابق.

ومن هنا حرّم الإسلام على المرأة حالة طلاق الزوج لها، أو وفاته عنها، عندما تعلم بحملها منه أن تخفي ذلك، قال تعالى:

﴿... وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ...﴾[1].

(١) البقرة/ ٢٢٨.

والآية وإن نزلت في المطلّقات، إلا أن الحكم يشمل المتوفى عنها زوجها، بنفس المناط، ولأن المورد عندنا لا يخصّص الوارد، وللروايات الناصّة على ذلك.

ولا إشكال، في أنه يتّضح خلال مدّة العدّة التي حدّدها الشارع المقدس لكلتا المرأتين كونها حاملاً أوْ لا.

وبما ذكرناه، يتبيّن، أن الإسلام عند إثباته العدّة بالنسبة للمرأة، لم يكن في وارد منعها من ممارسة حقها في تقرير مصيرها، وإنما كان يلحظ الحكمة المنسجمة أساساً مع الشرط الذي أباح طبقه للمرأة حق تقرير هذا المصير، وهو أن يكون تصرفها ضمن دائرة المعروف.

رابعاً: إن الإسلام، بنظرته هذه إلى المرأة مع ما تنطوي عليه من تكريم وتعظيم، يأبى لها أن تقف موقفاً تبدو من خلاله، وكأنها لا همّ لها في هذه الحياة إلا فرجَها وغرائزها، ولا عمل لها إلا أن تتحول إلى وعاء لما يقذفه الرجل من ماء الشهوة.

ولذا لا يتصوّر أن يرضى لها بأن تلقي بنفسها في أحضان أول رجل يعترض طريقها، وزوجها لمّا يدفن بعد، أو لمّا يتلاشى جسده تحت التراب، ضاربة عرض الحائط بمشاعر أبنائه، وأحاسيس أهله ومعارفه.

فلكي يحفظ الإسلام للمرأة كرامتها، ولكي لا تتحول إلى أداة للمتعة، أو وسيلة للتندّر والسخرية، ولكي ينمّي فيها الشعور بمسؤولية المشاركة الوجدانية للآخرين، قيّدها بهذا القيد الذي يتماشى مع حيائها الأنثوي، وعزّة النفس الإنسانية، اللذين هما في الحقيقة سرّ جمالها، وحافز تعلّق الرجل بها، وانجذابه إليها.

ج ـ المرأة في العصور الأخيرة

ولم يكن حال المرأة في العصور التالية على الجاهلية العربية وأثناءَها أحسن، ففي القرون الوسطى في أوروبا حيث ابتدأت في القرن التاسع عشر أول ما ابتدأت دعوات تحرير المرأة وتطورت إلى المطالبة بمساواتها مع الرجل، كانت المرأة سلعة تباع وتشترى بثمن بخس جداً، يذكر ذلك المفكر الإنجليزي هربرت سبنسر[١]، حيث ذكر أن الزوجات في إنجلترا كن يُبَعْنَ من قِبَل أزواجهن حتى القرن الحادي عشر الميلادي بثمن بخس.

بل إن هذا الفعل كان يحدث في إيطاليا أيضاً، حتى أواخر القرن الماضي، أن شخصاً بعد أن قتل آخر، اعترف عند التحقيق معه بأنه كان قد باع زوجته للقتيل بـ(٥٧٠) جنيهاً استرلينياً ورفض تسديد ما كان قد تبقى للزوج من الثمن فقتله[٢].

وينقل هربرت سبنسر أيضاً في كتابه المذكور آنفاً، أن بعض المحاكم الكنسية في إنجلترا، أصدرت قانوناً يبيح للزوج أن يعير زوجته[٣] لمن يريد مدة مقدّرة حسب الرغبة والاتفاق. وينقل أيضاً بأن الرجل من طبقة النبلاء في إنجلترا كان له الحق في الاستمتاع بعروس الفلاّح مدة أربع وعشرين ساعة بعد عقد الزواج.

---

(١) راجع كتابه علم وصف الاجتماع.

(٢) مجلة حضارة الإسلام، المجلد الثاني/ ص ١٧٨، ١٩٦٢، نقلاً عن إحدى وكالات الأنباء الإيطالية في ريجيو كالابريا الإيطالية.

(٣) هذا مشابه لما كان عليه الحال في الجاهلية العربية، وهو ما يسمى بنكاح البَدَل، حيث يتنازل كل من الزوجين للآخر عن زوجته ليستمتع بها مدة محدّدة. بل يوجد حتى الآن في أميركا (وخاصة في كاليفورنيا حيث تبادل الزوجات ممكن ومسموح به) بعض النوادي باسم «نادي تبادل الزوجات» (Swop - wives Club). وقد ذكرت ذلك صحيفة (News of the World) في عددها ٦٢٨٧ تاريخ ١٠ أيار ١٩٦٤.

كما ينقل إنَّ البرلمان في عهد الملك هنري الثامن أصدر قراراً يحظر فيه على النساء قراءة العهد الجديد.

وفي فرنسا، وبعد قيام الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر والتي رفعت شعار تحرير الإنسان، نص القانون الذي أصدره زعماؤها، والذي بقي ساري المفعول حتى العام ١٩٣٨، على أن المرأة قاصرة مثلها مثل الصبي والمجنون.

وحتى بعد تعديل هذا القانون عام ١٩٣٨، فقد وضع قيوداً قانونية على المرأة الفرنسية المتزوجة، فمنعها من ممارسة أية مهنة إلا بعد موافقة الزوج، ومنعها من التصرف بأموالها الخاصة، وأعطى لزوجها حق الانتفاع بتلك الأموال. وإذا كانت الأموال غير منقولة، فلا يحق للزوجة أن تتصرف أي تصرف قانوني بها حتى وإن أذنت المحكمة لها بذلك(١).

وبعد قيام الثورة الصناعية في أمريكا وأوروبا، في القرن التاسع عشر، وتطور القوة المحرّكة من البخار إلى الكهرباء وغيرها في العقود التالية، وتوسع المجال الإنتاجي كمّاً وكيفاً، تطلّب توسّعاً لا حدود له في زيادة الطلب على الأيدي العاملة في الشرق والغرب، لما لذلك من أثر على زيادة الإنتاج بكلفة أقلّ.

وعندها واجهت الدول الصناعية في أمريكا وأوروبا شرقها وغربها مشكلة النقص في الأيدي العاملة من الرجال، فتحت أبواب العمل في المصانع للمرأة، بل أتاحت لها فرص العمل في جميع المجالات

(١) راجع كتاب الزواج، زهدي يكن، ص ٢٢٤.

الإنتاجية أو الاستهلاكية، في حقول التجارة، والخدمات السياحية من فنادق ومطاعم ودور لهو، ومكاتب، ووسائل مواصلات، وأغرتها بالشروط المالية وظروف العمل، ولم تقيّدها بسن معينة، مما أتاح للنساء من جميع الأعمار الانخراط في مجالات العمل المختلفة، حتى أصبحت نسبة النساء العاملات في بعض الدول الصناعية الأوروبية كألمانيا ـ مثلاً ـ تعادل ثلث القوة العاملة، استناداً إلى إحصائية رسمية صدرت هناك عام ١٩٦٤.

وقد رافق هذه الظاهرة وسوّق لها جيش من المنادين بضرورة مساواة المرأة للرجل، وتحرّرها من سلطانه، ودعوتها للتخلّص من هيمنته عليها بتمكينها من استقلالها المالي عنه مما يؤدي إلى سلبه سلاحه القوي المشهور في وجهها واضطرارها للرضوخ أمام سلطانه.

أو لكي تكون ندّاً له في تحمّل أعباء المسؤولية المالية للأسرة ككل.

ولئن وجدت الدول الصناعية في أمريكا وأوروبا الغربية نفسها مرغمة من أجل اكتساب يد المرأة العاملة للّجوء إلى أساليب الدعاية المضلّلة والترغيب، وحرب الشعارات، نظراً إلى ارتفاع مدخول الفرد فيها أساساً، ووجود مستوى مقبول من الحياة لديها. فإن المرأة في دول أوروبا الشرقية مما كان يسمّى بالكتلة السوفياتية، حيث كانت تطبّق الأفكار الشيوعية على المجتمع بقوة النار والحديد، وحيث كان المستوى المعيشي للفرد متدنياً حتى درجة الكفاف، كانت مجبرة على العمل في جميع القطاعات التي تُزرع فيها من قبل السلطة من دون أن يكون لها حق الاعتراض، هذا فضلاً عن أن السلطة هناك، تريد، تطبيقاً

للنظرية الحاكمة للمجتمع الشيوعي، تحرير المرأة من كل القيود «الرجعية القديمة» التي كانت تقصر وجودها على أن تكون زوجة وأماً متفانية في خدمة أسرتها ومخلصة في سلوكها الزوجي، ووفق تلك النظرية، عليها أن تغيّر نظرتها وقناعاتها وفق قيم جديدة، فتقوم بالدور الطبيعي لها كأنثى ـ من دون نظر إلى القيم الدينية والأخلاقية، والأعراف والتقاليد «البالية» ـ في قبال الرجل كوعاء لإفراغ ماء شهوته الجنسية فيه، وينتج من ذلك اللقاح طفل هو ابن النظام الحاكم، ينتزعه من أحضانها لتنشئته وفق المبادئ الشيوعية.

وكان من نتيجة دخول المرأة معترك العمل، في أمريكا، وفي القسمين الغربي والشرقي من أوروبا، انهيار الأسرة، وتحوّل المرأة إلى سلعة يأخذها من يدفع أكثر، أو تعرض جسدها لمن يستطيع أن يؤمن لها وظيفة أفضل، فانتشر الفجور، وعمت بيوت الدعارة والاتجار بالرقيق الأبيض، وتكثرت أعداد أولاد الزنا، وارتفعت نسبة الطلاق بشكل تصاعدي، وراجت أسواق المخدرات، وتصاعدت وتيرة جرائم القتل والسلب والسرقات، وتعدّدت نوادي العراة والتعرّي من الجنسين، حتى ضجّت الصحف وكل وسائل الإعلام في تلك الدول بأخبارها وعرض صورها. وارتفعت أصوات بعض المفكرين والمصلحين محذّرة من انهيار الحضارة في دولهم وتفكك مجتمعاتها.

والسبب الرئيسي لكل ذلك، هو انخداع المرأة بأسطوانة ضرورة مساواتها مع الرجل، ودعوتها إلى التحرر من سيطرته، وإغرائها بانتزاع حقوقها المسلوبة منه، والتلويح لها بالكسب المادي من خلال ما يدفع لها من أجر، مع عدم تبصّرها بأن رافعي هذه الشعارات لم يكن هدفهم الأساس الانتصار لها، أو الدافع الأساس إشفاقهم عليها وحرصهم على

إنصافها، بل كان الهدف والدافع هو كسبهم إما يداً عاملة تزيد في إنتاج مصانعهم مع الكلفة المتدنية، وإما جسداً أنثوياً ناعماً يفرغون فيه صديدهم، ويطفئون بطراوته شبق الجنس وفورة الغريزة لديهم.

وأحب أن أختم هنا بإيراد تساؤلات أوردها أحد كبار المفكّرين في عالمنا العربي، لاعتقادي بأنها تساؤلات قد تحفّز كثيراً من المصلحين ليدقّوا ناقوس الخطر في مجتمعاتنا، علّها تستفيق من سبات، وتحذر مزالق خطرة إن دخلت فيها ـ لا سمح الله ـ فسوف تبتلى بما ابتليت به تلك الشعوب في أمريكا، والشرق والغرب من أوروبا. فاستفاقت تندب واقعها وتندم حيث لا ينفع الندم، قال هذا المفكّر:

(إن «تحرّر» المرأة في الشعوب أصحاب الحضارة الصناعية أصبح موضوع تساؤل كبير:

هل سيصل «تحرّر» المرأة في المجتمع الصناعي في الحياة الجنسية، إلى إزالة القيود التي تكونت في تاريخ الحضارة الإنسانية، لتحديد العلاقة بين الرجل والمرأة، وأصبحت عرفاً أو ديناً في وصفها بالشرعية، إلى ما يجري في حياة المجتمع البدائي، من انطلاق في هذا الجانب، وعدم الإحساس بأي أمر محرّم في هذه العلاقة؟

هل ستصل المرأة إلى الكشف عمّا بقي لديها مستوراً حتى الآن، وهو قليل: من الثديين والعورة؟ دون أي شعور بالخجل أو الحياء في مواجهة الآخرين أو الأخريات لها، وهي في عري تام؟

هل ستكون المباشرة الجنسية ضرورة بيولوجية وعضوية كالأكل والشرب تؤدّى في العَلَن، كما تؤدى في أي وقت، وفي أي مكان أمام الآباء والأبناء والأقارب والأمهات؟

هل سينتهي الاعتقاد بالمحارم في المعاشرة الجنسية؟ وهل ستؤدي المرأة وهي زوجة خدمة عن طريق فَرْجها للآخرين، في مقابل، كما تؤدي بعملها اليدوي خدمات تؤجر عليها؟ دون أي إحساس بحرج، أو شعور لخدش الكرامة الإنسانية؟ وربما الوضع آخذ في الطريق إلى ذلك)[١].

(١) محمد البهي: مشكلات الأسرة والتكافل، ص ١٦٥، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧١.

ـ ٢ ـ
المرأة المعاصرة إعلان عن حذاء

١ ـ في هذا العصر الذي نعيشه والذي طغت عليه القيم المادية على الصُعُد كافة، حتى لم يَعُد هناك فارق كبير بين الأشياء والأشخاص، بعد أن غدا الإنسان في حد ذاته، وفي كثير من جوانب شخصيته، سلعة خاضعة لنفس المقاييس التي تخضع لها أية سلعة استهلاكية، تُعرض في الحوانيت، أو على الأرصفة.

وقد كانت الأنثى في هذه السوق التي تنوعت بضائعها، واشتدّت فيها المضاربات، العنصر الأكثر رواجاً من حيث الطلب، وكثرة العرض، باعتبارها تمثّل المادة المشهّية، عيناً كالمقبّلات التي تضاف عادة إلى الطعام، أو توضع على المائدة، مع بقية الأصناف الأخرى.

ومن هنا، يُفسّر كون المرأة الجزء البارز في غالبية الإعلانات عن أي صنف من أصناف السلع، ابتداءً من تلك التي تخصّ المرأة نفسها، باعتبارها من شؤونها ومتطلباتها، كصالونات الحلاقة للسيدات، ومواد التجميل وأدواته، والأزياء، مروراً بما هو مشترك بينها وبين الرجل، كالإعلانات عن أصناف المأكولات والمشروبات، والمفروشات، والسيارات، وانتهاءً بما هو من مختصات الرجال وحدهم، كأدوات الحلاقة وما يعود إليهم من ملبوسات وأحذية رجالية.

ولم يقتصر الأمر على هذا الحدّ، بل تعدّاه إلى جعل المرأة مادة إعلانية ملفتة للنظر في عالم السياحة، حيث يبرز جسدها بأوضاع مثيرة للجنس بشكل فاضح.

وقد تشير المرأة ـ كما رأيت في بعض هذه الإعلانات ـ إلى أماكن حساسة من جسدها، بحيث يبدو الإعلان وكأنه دعوة إلى قضاء أيام في الرحلة المعلن عنها في الممارسات الجنسية، لا الاطلاع على المعالم الحضارية للبلد المعلن عنه.

وتصفح الإعلانات في الصحف اليومية وغيرها، أو المرئية على الشاشة الصغيرة يؤكد كل ما ذكرناه، ممّا جعلنا نعنون هذه النبذة بعنوان: المرأة المعاصرة إعلان عن حذاء.

ولكن، إذا كانت المرأة قد تحوّلت تحت ضغط القيم المادية لهذا العصر، إلى مادة إعلانية من خلال ما تمثل من إثارة وشهوة، ودخلت قائمة المعروضات في الأسواق كأية مادة استهلاكية أخرى، فمن المعلوم والأكيد، أن الأدمغة التي تخطط للشركات التجارية الكبرى والصغرى، لا يمكن لها أن تجترّ أفكارها ذاتها، وتستمر على نسق واحد في ما تقدمه للمجتمع، إن على صعيد السلعة، أو على صعيد الإعلان عنها.

وإذا كانت الأنثى هي بطلة الموقف فيما يتعلق بإثارة اهتمام الرجل، لأنها تدغدغ فيه غرائزيته، فلا بدّ وأن تبتكر دائماً الطرق الأكثر والأسرع أثراً في هذا المجال.

٢ ـ ولكن، كيف يمكن التوصل إلى مثل هذا الهدف الفاجر، وهنالك بقية من حياء عند هذه الأنثى؟

وكيف يمكن إنجاح هذا المشروع ذي الخلفية الخطيرة وإنْ تَبَرْقَعَ

ببرقع تجاري ضخم، وفي المجتمعات كافة، وفي المجتمعات الشرقية بوجه خاص، بقية من قيود وضوابط خلقية ودينية، هي على ضحالتها وضآلتها، ما زالت مؤثرة في مواصفات إنسان هذه المجتمعات، وسلوكه، وأسلوب تعامله؟

وهنا وجدت هذه الأدمغة أن المجابهة الصريحة، قد تثير عاصفة تجهض أهدافها المموّهة، وأغراضها الدنيئة قبل أن تتحقق، فَرَأَتْ أنه لا بد من اللجوء إلى أسلوب المواربة بدل المواجهة، مع إعطاء هذا الأسلوب شكلاً مزوّقاً، وتأطيره بإطار جذّاب، فيه خليط من المغالطات المقبولة لدى شرائح من الناس السذَّج والبسطاء، الذين يتميزون بسطحية الفهم والإدراك، وأُفُقية العلم والثقافة، ومنهم مَن تستهويهم الشعارات الرنّانة والكلمات الطنّانة، فتدغدغ مشاعرهم وتعمي بصائرهم، فينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح.

فكان أن أنزلت إلى الأسواق اسطوانتان لا أسطوانة واحدة!!

الأولى: كان لحنها المرأة نفسها، وكلماتها تدور حول مظلوميتها، والتباكي على حقوقها المهدورة، وحثّها للتمرد على ديكتاتورية الرجل وتسلّطه عليها، وتحكّمه في إرادتها، ودفعها إلى المطالبة بمساواتها معه، باعتبار أنها لا تقل عنه أهمية وكفاءات، إلى آخر ما تفتّقت عنه عقول هؤلاء المتباكين نفاقاً على مظلومية المرأة من تعبيرات.

والحقيقة التي لا تخفى على الناقد البصير، أن الذين ألّفوا كلمات هذه المعزوفة المغرضة، وضبطوا اللحن الخاص بها، إنما كانوا مجموعة من الرجال، هم من الذئبيّة بحيث لا يستسيغون طعماً إلا لأجساد النساء، ولا تستهويهم إلا رؤيتها عارية تثير فيهم فورة الجنس، ودفقة الشهوة،

ولكنهم لبسوا للدَّوْر لَبوسَه المناسب، جلد الحمل الوديع، وقناع المدافع عن حقوق المظلوم، متوسّلين بدموع التماسيح الكاذبة.

وهكذا ولدت في بلادنا جمعيات المطالبة بحقوق المرأة، وضرورة مساواتها مع الرجل، هنا وهناك.

وكثرت الأصوات الخشنة مطالبة بتحريرها، وهم بذلك إنما دعَوا إلى تخريبها، وإخراجها عن طبيعتها التي فُطرت عليها، بقذفها في المجهول الذي لا يؤدي إلا إلى ضياعها وابتذالها.

وهكذا كان، فقد تكفلت هذه الأسطوانة ـ كما هو الواقع ـ بتحقيق الهدف الأساس منها، والذي حرص أصحابها على عدم الكشف عنه، وهو القضاء على البقية الباقية من حياء عند المرأة في مجتمعنا.

لم يُرد بهذه الأسطوانة الدفاع عن حقوق المرأة المهدورة، وإنما أريد بها التنفيس عن حيوانية الرجل الفاجر.

عيناً كما حصل في بلاد الغرب، حيث عُزفت أول ما عُزفت ألحان هذه الأسطوانة، بكل خطوطها التي ذكرت، فكان من آثارها المدمّرة هناك ما بات معروفاً وظاهراً للعيان من قبل الغربيين أنفسهم، إن على صعيد الأسرة، أو على صعيد البنية الاجتماعية ككل، علماً بأن هؤلاء الغربيين هم أنفسهم ورثة كلٍّ من ثقافة اليونان والرومان، وحضارتهم، فمن المفروض فيهم أن يتعظوا بما جرى لهاتين الحضارتين في النهاية، حيث انهارتا، وكان السبب الجوهري في هذا الانهيار الكبير، هو المرأة نفسها(*)، بعد أن منحت من الحقوق في المساواة مع الرجل، والحرية

(*) وقد نقل عن أرسطو ذلك، وكان يحمل بشدة على أهل اسبارطة لمنحهم المرأة هذه الحرية والحقوق بلا حدود ويحذّر من أن ذلك سوف يؤدي إلى انهيارها، وقد تحقق ما حذّر منه.

المنفلتة مع التبرّج والتزيّن إلى درجة أن ألقت حبلها على غاربها ـ كما يقال ـ فاختلطت بالرجال في الأسواق والأندية تزاحمهم بصدرها ومنكبيها، إلى أن فشت ظاهرة الزنا العلني، حتى أصبح عرفاً مقبولاً، ثم ديانة متّبعة فصوّرت آلهتهم على أنها مجموعة من الزناة «كأفروديت»، رمز الخيانة والتي قالوا بأنها أقامت علاقة زنا مع أحد أفراد البشر فأثمرت هذه العلاقة «كيوبيد» فجعلوه إله الحب؟!.

والسبب نفسه، كان وراء انهيار حضارة الرومان العملاقة، وكان «كانون» وهو الفيلسوف الروماني الشهير يجهد في تحذير شعبه من مخاطر منح المرأة حريتها، بشكل منفلت، وقبول مبدأ مساواتها بالرجل، ولكن تحذيراته تلك لم تلقَ آذاناً صاغية، وقد تحقق كل ما أنذر به وحذّر، حيث انقلبت المملكة العظيمة بعد فترة رأساً على عقب[١].

وقد وجد في هذا العصر من المفكرين الأوروبيين من أدرك هذه الحقيقة، فأصدر تحذيراته للشعوب الأوروبية من مغبة السنّة التي سلكتها فيما يتعلق بالمرأة عندهم، يقول الأستاذ «لويزبرول» بهذا الصدد:

«إن فساد الأسس السياسية وُجدَ في كل زمان، ومن الغريب المدهش، أن عوامله في الزمن الغابر، هي ذات عوامله في الزمن الحاضر، يعني أن المرأة كانت العامل الأقوى في هدم الأخلاق الفاضلة».

وبعد أن قارن هذا الأستاذ بين ما عليه الحال اليوم في أوروبا، وما حصل في العهود الماضية عند اليونان والرومان، يقول:

---

(١) راجع دائرة المعارف، فريد وجدي. المجلد ٨/ ٦١٨ وما بعدها.

«لقد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون صحبة النساء ذوات الطبائع الخفيفة اللاتي كان عددهن بالغاً حدَّ الكثرة، فصار الحال اليوم (في أوروبا) كما كان في ذلك العهد...»[١].

وهو بهذه المقارنة، يبشّر بانهيار حضارة الغرب على غرار ما حَصَل لمورّثها الحضاري اليونان والرومان. والسبب واحد، هو تفلّت المرأة وتبذّلها بحجة حقها في الحرية، ومساواتها للرجل.

هذا كله عن الأسطوانة الأولى.

وأما الأسطوانة **الثانية**:

فكان لحنها الإسلام كدين، وكلماتها تدور كلها حول رميه بالجمود والتحجّر، وبالتالي سببيته ـ على حدّ زعم المفترين ـ في تعطيل الطاقات، وشلّ العزائم، وتثبيط الهمم لدى أتباعه من المسلمين بشكل عام. وامتهان المرأة وسحقها بجعلها إمَّعَةً للرجل، وخنقَ طاقاتها بما فرضه عليها من قيود، وما رسمه لها من حدود سلبت عندها القدرة على تقرير مصيرها في هذه الحياة، إلى آخر ما ابتكرته عقولهم من أضاليل وأباطيل في هذه المعزوفة.

والحقيقة التي لا تخفى على بال الناقد البصير ـ أيضاً ـ ، أن الذين ألّفوا كلمات هذه الأسطوانة وضبطوها بإيقاعاتهم الخاصة، إنما كانوا مجموعة من المبشّرين والمستشرقين الحاقدين على الإسلام، وأذنابهم ممن ينتسبون إليه، حيث استطاع الاستعمار الثقافي في بلادنا، من خلال

(١) فريد وجدي: دائرة المعارف ص ٦٢١.

رأسيه: التبشير والاستشراق، أن يجنّدهم ليسيروا في ركابه، مستعيناً بهم في عملية هدم الإسلام، وتشويهه وإضعاف تأثيره إن على صعيد العقيدة أو الشريعة، في نفوس المسلمين[١].

وقد تكفّلت هذه الأسطوانة الثانية الترويج بوسائلها الإعلامية كافة، مرئية ومسموعة ومقروءة، للافتراء على الإسلام، ونبيّه، ودستوره القرآن.

فالإسلام ـ كما يقول هؤلاء المفترون ـ دين مادي لا روحية فيه، يشجّع الإرهاب والاعتداء ويحرّض أتباعه عليهما. ويحثّ على الحيوانية والانغماس في المُتَع والملذات. وهو دين قام على القوة وأسّس على أشد أنواع التعصّب، ولا يقيم وزناً للقوانين الأخلاقية، وما هو في نظر المبشّرين والمستشرقين إلا خليط من الديانتين النصرانية واليهودية... إلخ، وهو بالتالي دعوة دينية لا سياسة فيه ولا دولة[٢].

---

(١) نذكر من أولئك وهؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أَخْطَرَهُمْ:

- Baron Carradevaux - A. Geom - A. J. Arberry.
- S. M. Zweimer - Goldziher - H. A. R. Gibb.
- R. A. Nicholson - L. Massignon - A. J. Winsink.
- J. Shacht - H. Lammens.

ـ مجيد خوري (مسيحي عراقي). فيليب حتي (مسيحي لبناني متأمرك). عزيز عطية سوريال (مسيحي مصري). سلامة موسى. محمد زكي عبد القادر. صادق جلال العظم. مصطفى عبد الرزاق. أحمد خان. غلام أحمد القادياني. وغيرهم كثير، فراجع: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، دار الفكر، بيروت، ط ٦، ١٩٧٣. وهو سِفر جليل يستحق القراءة بمجموعه. ومن الصفحة ٥٣٨ إلى آخره قوائم بأسماء المستشرقين والمبشرين الحاقدين على الإسلام.

(٢) انظر على سبيل المثال: فينسينك، عقيدة الإسلام، ١٩٣٢. والمستشرقون والإسلام، د. حسين الهواري، القاهرة، ١٩٣٦. والبحث عن الدين الحق، المونسنيور كولي، ١٩٢٨. والتبشير والاستعمار، د. عمر فرّوخ. وغيرها.

ومحمد ـ نبي المسلمين ـ في نظر هؤلاء، لص وسفّاح، وسارق، وزير نساء[١].

والقرآن، نتاج لمحمد، ولا ربط له بالسماء، وهو عبارة عن نتف مأخوذة من التوراة والإنجيل[٢].

٣ ـ والحقيقة المؤلمة، هي أن بعض من ينتمون إلى الإسلام، قد انجرفوا وراء هاتين الأسطوانتين، وكثيرات ممن ينتمين إلى هذا الدين قد خدعن، فرحن يتبارَين في التسويق لمظلوميتهنَّ، والكشف عمّا ادَّعين من عضلهنَّ عن ممارسة حقّهن في تقرير مصيرهن، بهذا الأسلوب أو ذاك.

وكأن تقرير مصير المرأة وتحريرها، لا يتمّان، وحقوقها لا تتقرر إلا بالتفلّت من القيم الدينية والتحلل من الضوابط الأخلاقية، وتحوّلها إلى سلعة تجارية ومادة إعلانية؟!!

ولا شك في أن مردّ هذا الانجراف، وذاك الانخداع، عندهم وعندهن، إنما كان ناشئاً ـ في الغالب ـ عن جهلهم بشكل عام بحقائق الإسلام وأحكامه، وما يتعلق منها بالمرأة والأسرة بشكل خاص، وما يقرر لهذه الأنثى من مقام رفيع، يحلّق بها إلى المستوى الإنساني اللائق، الذي يؤهّلها لأن تكون بحق وراء كل عظيم، وراء الإنسان العظيم، ووراء المجتمع العظيم، وبالتالي وراء الأمة العظيمة.

إن جهل هؤلاء جميعاً بمنطق الإسلام فيما يعود إلى الإنسان على

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

العموم، وإلى الأنثى على وجه الخصوص، نتيجة عصر الركود والانحطاط، هو الذي مكّن سم الاستعمار الفكري الكافر، من أن يسري في عقول من انجرف أو انخدع.

٤ ـ فالإسلام لا يريد للمرأة المسلمة أن تكون كمّاً مهملاً في المجتمع، ولا عنصراً مهمَّشاً فيه، وإنما ربطها بالحياة العامة للأمة المسلمة، كعنصر حيّ وفاعل، واعتبرها والرجلَ سواءً في الإنسانية. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . .﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «النساء شقائق الرجال»(٢).

وساوى الله سبحانه بينها وبينه في العبودية له والعبادة والجزاء، فقال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ . . .﴾(٤).

ثم تأمل في هذه الآية الكريمة التي جاءت نصاً صريحاً في مبدأ المساواة المطلقة أمام الله سبحانه بين جنس الذكور وجنس الإناث فقال تعالى:

---

(١) النساء/ ١.
(٢) رواه أبو داوود وأحمد وغيرهما من أصحاب السنن.
(٣) النحل/ ٩٧.
(٤) آل عمران/ ١٩٥.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

وكرّم الإسلام الأنثى، بعد أن سفّه عادة أهل الجاهلية حيث كانوا يتشاءمون بولادتها، ويخجلون ويحزنون لذلك، بل كان بعضهم يدفنها وهي حيّة فحرّم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[٢].

كرّم الإسلام الأنثى بنتاً وأختاً، وعمّةً وخالة.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن عال ابنتين أو أختين أو عَمّتين أو خالتَيْن، حجبتاه من النار»[٣].

وعنه ﷺ أنه قال: «من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات وجبت له الجنّة. فقيل، يا رسول الله واثنتين؟ فقال: واثنتين. فقيل: يا رسول الله، وواحدة؟ فقال: وواحدة»[٤].

بل ورد عن رسول الله ﷺ، استحباب زيادة الرّقّة على البنات والشفقة عليهن أكثر من الصبيان، فقال ﷺ:

---

(١) الأحزاب/ ٣٥.
(٢) النحل/ ٥٨ ـ ٥٩.
(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج١٥/ ١٠٠، ح٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٤) م.ن، ح ٣.

«إن الله تبارك وتعالى على الإناث أرقُّ منه على الذكور، وما من رجل يُدْخِلُ فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلا فرّحه الله يوم القيامة»[١].

كما كرّم الإسلام الأنثى زوجةً. قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

وقال تعالى عن الزوجات:

﴿... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ...﴾[٣].

وإطلاق اللباس على كل من الزوجين، بلحاظ أن كلاً منهما يستر عيوب الآخر. أو لأن كلاً منهما يخالط الآخر ويلامسه كما يلامس الثوب لابسُه ولامِسُه.

وروي عن رسول الله ﷺ قوله يستوصي بالنساء خيراً: «اتّقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله واستحلَلْتُم فروجَهُنَّ بكلمة الله...».

وعن الإمام علي (عليه السلام) في وصية له: «... المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فَدَارِها على كل حال، وأحسِن الصحبة لها ليصفوَ عَيْشُك...»[٤].

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج١٥/ ١٠٤، ح١.
(٢) الروم/ ٢١.
(٣) البقرة/ ١٨٧.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٢٠، ح ١ و٣.

وكرّم الإسلام الأنثى أيضاً أُمّاً. قال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا . . .﴾[1].

وروي عن رسول الله ﷺ وقد سأله رجل: «من أَحَقّ الناس بصحبتي؟ قال ﷺ: أمّك. قال: ثم مَن؟ قال ﷺ: أمّك. قال: ثم مَن؟ قال: أمّك. قال: ثم مَن؟ قال ﷺ: أبوك[2].

وروي عنه ﷺ، وقد أتاه رجل فقال:

«إني رجل شاب نشيط، وأحب الجهاد، ولي والدة تكره ذلك؟. فقال له النبي ﷺ: ارجع فكن مع والدتك، فوالذي بعثني بالحق نبيّاً، لأُنسها بك ليلة، خير من جهادك في سبيل الله سنة»[3].

هذه لمحة عن مدى تكريم الإسلام للمرأة المسلمة وتعظيمه لها.

وهو في نفس الوقت الذي يكرّمها فيه بالشكل الذي عرضناه، فإنه لا يريد لها أن تكون آلة بيد الرجل يديرها كيف شاء، حتى ولو كان أباً، أو زوجاً، أو أخاً، وإنما أرادها كائناً ذا شخصية مستقلة يشعر بوجوده، ويحياه، ويدرك حقّه الأصيل في تقرير مصيره بنفسه في حدود كلمات الله، وعلى ضوء أحكامه وتشريعاته، التي لا تهدف إلاّ إلى تركيز هذا الحق، وحياطة هذه الشخصية وتأكيدهما.

ونحن، فيما أشرنا إليه من جوانب تكريم الإسلام للمرأة بجميع

---

(١) الأحقاف/ ١٥. وكُرهاً: يعني المشقة والعناء.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ٢، الباب ٧٠، ح ٩، ص ٦٢٨. وورد في كل من البخاري ومسلم باختلاف يسير.

(٣) المجلسي: البحار، ج ٧٤/ ٥٩، ح ٢٠. وورد بصيغة أخرى وبمضمون قريب في الطبراني أيضاً، حيث قال في ذيله: الزم رِجْلَها فثَمَّ الجنة.

عناوينها المتقدمة، لم نكن في مقام الدفاع عن هذا الدين الحنيف، بقدر ما كان قَصْدُنا كشف زيف ما يروّجه الجاهلون وأنصاف المثقفين في مجتمعاتنا، ممن كوّن أرضيتهم الفكرية المنحرفة الاستعمار الكافر بمناهجه في جامعاته ومعاهده التي أنشأها في كثير من بلدان المسلمين[١]. ومنهم من تولى توجيهه وتكوينه بعض كبار المستشرقين الحاقدين من اليهود ومن ثم رجعوا إلى الشرق الإسلامي لبثّ السموم الفكرية التي تجرعوها على هؤلاء[٢].

فهؤلاء المستأجرون، وأمثالهم، كانوا يطرحون ما تلقّنوه من أسيادهم تشكيكاً بالإسلام وتشويهاً لمبادئه ومفاهيمه وعقائده، وهم واعون لما يقومون به من عمل تخريبي، انصياعاً لمخططات الأعداء من المبشرين والمستشرقين، فقصدنا فيما عرضناه ـ كما سبق القول ـ كشف أقنعتهم وفضح عمالتهم بشكل عام. وإن كان هدفنا بشكل خاص في هذا الكتاب، عرض دراسة موجزة لموقف الإسلام من المرأة، تضع أمام نسائنا المخدوعات، حقيقة ناصعة، هي أن هذا الدين قد أعطاهن مطلق الحق في تقرير مصيرهن في الحياة، بلا مواربة ولا انتقاص.

ولكن، كيف جعل الإسلام للمرأة المسلمة هذه المكانة؟

وكيف قرر لها حق رسم مصيرها دون وصاية أو تَبَعيّة؟

---

(١) من المؤسسات التعليمية الكبرى في العالم الإسلامي التابعة للتبشير والاستشراق: الجامعة الأميركية ببيروت، وكانت في السابق تسمى الكلية السورية الإنجيلية. ثم كلية بيروت. أنشئت عام ١٨٥٦ وهي بروتستانتية. وجامعة القديس يوسف ببيروت وهي تخضع للبابوية الكاثوليكية وتسمى الآن باليسوعية. وكلية روبرت في استانبول وتحول اسمها إلى الجامعة الأميركية. والكلية الفرنسية في لاهور. والكلية الأمريكية بالقاهرة وأسميت فيما بعد بالجامعة الأمريكية في قبال الجامع الأزهر. راجع لمزيد الاطلاع كتاب التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ.

(٢) من أبرزهم: طه حسين، منصور فهمي، زكي مبارك، محمود عزمي. ومن أساتذتهم يهوديان مشهوران في الاستشراق هما: ليفي برايل، ودوركهايم.

- ٣ -

في الإسلام مصير المرأة مصير الأمة

١ ـ موقف الإسلام من تكريم الإنسان عموماً

الإنسان في منطق الإسلام، كائن سبق تكريمه حتى قبل عملية خَلْقه وإيجاده، وذلك عندما أخبر الله سبحانه ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[1].

وَلازَمَهُ هذا التكريم الإلهي في نفس عملية الخلق والإبداع، حيث صنعه الله بيديه:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ...﴾[2].

وفي هذا ما فيه من إشارة لطيفة إلى ما ذكرت، إضافة إلى حسن الخلقة وجمال التكوين وإنزاله وزوجَه الجنَّة، وأمر الله الملائكة بالسجود له سجود تكريم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3].

---

(١) البقرة/ ٣٠.
(٢) ص/ ٧٥.
(٣) التين/ ٤.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا...﴾[(١)].

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟...﴾[(٢)].

كما لازَمَهُ هذا التكريم الإلهي بعد عملية خَلْقه وإيجاده، عندما سخّر الله له الكون بما فيه، ليستغلّه، ويستعمره، ويستثمره، مستعيناً بذلك كله على تحقيق معنى استخلافه في الأرض:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[(٣)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ...﴾[(٤)].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾[(٥)].

ومن الواضح، أن هذا التكريم السابق على وجود الإنسان، والمصاحب لذلك الوجود، واللاّحق له، لا يختص بالرجل فقط، وإنما هو شامل الرجلَ والمرأة معاً، فعندما أكرم الله آدم بجعل الجنّة مسكناً له، ووَعَدَه:

---

(١) البقرة/ ٣٦.
(٢) الأعراف/ ١١.
(٣) الإسراء/ ٧٠.
(٤) إبراهيم/ ٣٢، ٣٣، ٣٤.
(٥) البقرة/ ٢٩.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[١].

لم يؤثره وحده بهذا التكريم، بل شَمَلَ معه حوّاء أم البشر أيضاً سواء بسواء:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا...﴾[٢].

٢ ـ حصيلة ومدخل

والحصيلة من كل هذا الذي ذكرناه، أن ما كان من تكريم الله لهذا المخلوق ذَكَرَه وأنثاه، من أَخَصّ خصائصه وأبرز مميزاته، هو أن تَكون له حرية التقرير والتقدير، وتحديد المصير، إذ لا يُعْقل أن يجتمع قهْرُه وقَسْرُه على مصيره، مع كونه مخلوقاً مُعَظَّماً مُكرَّماً.

ولعل ما ذكره الله سبحانه في القرآن الكريم عن قصّة بَعْثه لموسى وهارونَ (عليهما السلام) إلى فرعون مصر، وبيان الهدف الأساس من هذه البعثة، يشير بوضوح، إلى أن قَسْرَ الإنسان وقهره ـ بشقَّيْه ـ أمر لا ينسجم مع موقع هذا الإنسان في الحياة، ولا يأتلف مع السنّة الإلهية المقررة بالنسبة إليه.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ... فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٣].

---

(١) طه/ ١١٨، ١١٩.
(٢) الأعراف/ ١٩.
(٣) طه/ ٤٢، ٤٧.

فالهدف من هذه البعثة الإلهية، هو تقرير مصير شعب بكامله، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وتخليصه من واقعه المر الذي يعيشه، واقع القهر، والذل، والاستعباد من قِبَل أكبر طاغية في الأرض آنذاك:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وقد كان القتل والاستعباد قراراً اتخذه فرعون وأركان حكمه في حق كل من لا يؤمن بربوبيته التي يدّعيها ولا يذعن لجبروته:

﴿... قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ... وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ...﴾.

نعم، هدف هذه البعثة الإلهيّة ـ كما سبق ـ هو تقرير مصير شعب:

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ ...﴾.

تقرير مصير شعب بلا استثناء جنس منه دون آخر، كباره وصغاره، ذكوره وإناثه.

بل إن المرأة في هذا الشعب بالخصوص ـ كما يفهم من نص الآية ـ: ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾، هي التي كانت تتحمّل باستبقائها حيّة من قبل فرعون وقومه لشتى الأغراض، كل ضروب الذل والمهانة والازدراء.

فحق الإنسان ـ بشكل عام ـ في تقرير مصيره، هو الذي ينسجم مع المنطق الإلهي، ويتناسب مع فلسفة وجود هذا المخلوق، والهدف

---

(١) غافر/ ٢٥، ٢٦.

من خَلْقه، وليس في جعل هذا الحق له مِنّةٌ لمخلوق عليه، بل هو ناشئ من الحكمة الإلهية، ونابع من كرم الله ولطفه ورحمته وحده.

والمرأة، كأحد جَناحي النوع الإنساني، ينطبق عليها بلا تجوّز أو مبالغة كل هذا الكرم واللطف والرحمة منه سبحانه، ولها كالرجل عيناً الحق في تقرير مصيرها في هذه الحياة.

٣ ـ نداء إلهي خاص: في بيت النبوّة.

وكأن الله سبحانه، أراد أن يكون أول بيت في المسلمين، منطلق حق المرأة في تقرير مصيرها، وذلك البيت هو بيت قائد الأمة، والمؤتمن من قِبَل الله، محمد ﷺ، وبيت من يُعتبرن أمهات المؤمنين في الأرض، نساء النبي الأعظم، فكانت آيتا التخيير:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[1].

سبب النزول

ولعل سبب الاطلاع على سبب نزول هاتين الآيتين وما تلاهما، والجو العام المحيط بهما، يلقي الضوء على ما نحن بصدد بيانه، من حق المرأة في تقرير مصيرها في الحياة، حتى ولو كانت تلك المرأة زوجة لأعظم رجل في البشرية، رسول الله وخاتم النبيّن!!.

فقد روى المفسّرون[2]، أنه لمّا رجع رسول الله ﷺ من غزوة

(١) الأحزاب/ ٢٨، ٢٩.
(٢) راجع تفسير الميزان للسيد الطباطبائي، ١٦/ ٣١٤ ـ ٣١٥. والتفسير الكبير للرازي.

خَيْبَر، وأصاب كنز آل أبي الحقيق من اليهود، وكان سيّدهم سلام بن أبي الحقيق، قالت أزواجه[١] ﷺ له: أعطنا مما أصَبْتَ. فقال ﷺ لهنَّ: قسمته بين المسلمين على ما أمر به الله عزَّ وجلّ. فَغَضبنَ من ذلك وقُلْنَ: لعلّك ترى إنك إن طلّقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوّجونا؟!

فأَنف الله لرسوله، فأمره أن يعتزلهنَّ، فاعتزلهنَّ في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حضنَ وطهرن، ثم أنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، فقامت أم سلمة[٢] أول من قامت. فقالت: قد اخترت الله ورسوله، فقمن كلّهن وقُلْنَ مثل ذلك.

والذي يستشم من كل ما ذُكر، أن زوجات النبي ﷺ، أو بعضهنّ، كنّ يرين فيما هنّ فيه من شظف العيش، وابتعاد عن ترف الحياة، ما تضيق به صدورهن، ويزعجهنّ، وهذا أمر طبيعي.

فالمرأة، بشكل عام، عندما تنظر فتجد نفسها في مستوى من الحياة دون مستوى أمثالها من النساء في المجتمع المعاش من الناحية المادية، ربما وَجَدت في نفسها وتأملت، فأظهرت ذلك بشكل نِسْبي قد يتراوح شدّةً وضعفاً.

فكيف بامرأة ترى نفسها أنها زوجة قائد هذه الأمة، المالك زمامها، والقيّم على مقدّراتها، والآمر والناهي فيها، ونبي البشرية جمعاء، فتظن أو تتوهم، أن مثل هذه المكانة، يجب أن يساوقها مستوى رفيع من الحياة والتنعُّم بزينتها، أو أنها تخوّلها حقاً زائداً على غيرها من النساء في هذه الأمة.

---

(١) وروي أن القائل منهن بعضهن وليس كلّهن، وقيل إنها كانت زينب بنت جحش.
(٢) وكان اسمها هند بنت أبي أمية.

فجاءت هاتان الآيتان من سورة الأحزاب، صريحتين واضحَتيْن حازمتين، لتبيّنا أن كونهن زوجات قائد الأمة ونبي الإنسانية، لا تخوّلُهُنَّ ما يتوهَّمْنه من حق، فالناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط، والنساء كلّهن عيال الله، لا فضل لواحدة منهن على الأخرى، إلا بالتقوى والعمل الصالح. فضلاً عن أنهنَّ من المفروض فيهنَّ أن يكنَّ أسوة وقدوة لغيرهن من نساء الأمة في الزهد بالدنيا والتعلّق بالآخرة التي هي خير وأبقى، وغالبية أولئك النساء كنّ يعشن المستوى المادي نفسه إن لم يكن أقلّ، فحريّ بهنّ أن يضربن المثل لهن في الصبر والتحمّل ونكران الذات.

وقد نزلت هاتان الآيتان وما تلتهما من آيات، لتخيّرهن بين قبول ما هنّ عليه في بيت النبوّة من شظف العيش وضنك الحياة مع ضمان الآخرة لهن، بشرط الإحسان والعمل الصالح منهن ـ يقدّمنه ـ ، وبين الطلاق من دون خصومة ولا مشاحنة. وهو المقصود بالتسريح بإحسان في الآية الكريمة ـ ولكن لا إلى فراغ ـ وهذا من جملة اللفتات الإنسانية في التشريع الإسلامي، وإنما هو الطلاق مع عطاء لكل واحدة منهنَّ، تستطيع من خلاله أن تحقق ما صَبَتْ إليه من متعة الحياة وزخرفها، بشكل مقبول.

﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

وهن بعد هذا التخيير، لهن مطلق الحق في أن يقرّرْن أحد المصيرين، ويخترن أحد الطريقين، فاخترْنَ بملءِ إرادتهنَّ الحياة مع النبي الأكرم ﷺ مع ما فيها من الضَّنْك مع الأجر العظيم في الآخرة، على الدنيا وزينتها وزخرفها مع الابتعاد عنه ﷺ.

٤ ـ نداء إلهي عامّ

وإذا كان النداء السابق إلى نساء النبي ﷺ بتخييرهنّ، نداء خاصاً موجهاً إلى رسول الله ﷺ فيما يتعلق بأزواجه، وكان واضحاً فيما نحن بصدده، من إعطاء الإسلام للمرأة حق تقرير مصيرها بنفسها، فإنّ في القرآن الكريم نداءات إلهية عامة، يمكن للمتأمل فيها، أن يكتشف الحقيقة نفسها أيضاً.

فمن هذه النداءات، قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ. . .﴾[1].

سبب نزول الآية[2]

لقد نزلت هذه الآية ـ بحكم سياقها ـ بعد صلح الحديبية بين النبي ﷺ وبين مشركي مكة في آخر سنة ست للهجرة.

وكانت بنود الصلح تنص فيما تنص عليه، على أنه إن لحق رجل من مشركي مكة بالمسلمين مؤمناً ردّوه إليهم، وإن لحق رجل من المسلمين بالمشركين لم يردّوه.

ثم إن بعض نساء المشركين أسْلَمْنَ وهاجرنَ إلى المدينة، فجاء أزواجهن يستردونهنّ، فنزلت الآية المذكورة.

---

(١) الممتحنة/ ١٠. والمراد بامتحانهن أن يُسْتَحلَفنَ ما خرجن من بغض الزوج ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا التماس دنيا وما خرجن إلاّ حباً بالإسلام. فراجع مجمع البيان للطبرسي ٩ و١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) راجع تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي. ١٩/ ٢٤٣ وما بعدها. والتفسير الكبير، للرازي، ٢٩/ ٣٠٥.

نزلت هذه الآية صريحة هازمة، بعدم جواز ردّهن إلى بيئة الكفر بعد أن اخترنَ طريق الإيمان، وقرّرن مصيرهنَّ بسلوكها بأنفسهنَّ بعد أن شرح الله صدورهنَّ بالإسلام، وتَجَشَّمْنَ الصعاب للإفلات من قبضة الشرك والضلال والانحراف، والتجأن إلى كنَف المؤمنين بقيادة رسول الله ﷺ، مهاجرات بدينهنّ إلى الله.

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ. . .﴾.

إن هذا الموقف الإسلامي، يبيّن أن للمرأة حق تقرير مصيرها، حتى ولو أدّى ذلك إلى فسخ علاقة زوجيّة قائمة بينها وبين رجل اختار طريق الكفر، ومحاربة الحق، والصدود عن كلمة الله سبحانه.

والمتأمل ذيلُ هذه الآية الكريمة، يرى حكماً إلهيّاً يقطع دابر الشك حول إعطاء الإسلام المرأة حق تقرير المصير في الحياة، في أدقّ موقف، هو إنهاء العلاقة الزوجية في حال اختيارها طريق الإيمان والإسلام، مع بقاء زوجها على ما هو عليه من الكفر. وينص هذا الحكم، على المسلمين أن يدفعوا للزوج الكافر ما يكون قد أمهرها إياه من مال عند اقترانه بها، لكي يصرف النظر نهائياً عن استعادتها بعد أن هداها الله.

ومن هنا أجمع الفقهاء المسلمون على اختلاف مذاهبهم، على حرمة تزوج المسلمة بغير المسلم مشركاً كان أو غير ذلك.

وهذه صورة من صور تحطيم الإسلام للحاجزين النفسي والمادي أمام المرأة المسلمة، اللذين قد يقفان حجر عثرة في طريق تقرير مصيرها في الحياة.

الحاجز النفسي المتمثل بالتعصب لأسرة أو عشيرة، أو أرض، أو زوجية.

والحاجز المادي من الشح عن البذل مع وجدان المال، أو الحيرة والحرج مع عدم وجدانه، حيث تقتضي أخوة الإيمان أن يتكفّل المسلمون بتأمين المال المطلوب لمساعدتها على تثبيت خيارها:

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

٥ ـ شاهد جديد

وهناك شاهد آخر في كتاب الله، يشير إلى أمر هو أيضاً من أوضح مصاديق حق تقرير المصير للإنسان بشكل عام في هذه الحياة.

ولكن اللافت للنظر حقاً، هو أن هذا الشاهد كان محوره النساء بشكل خاص، بل كان ناظراً إليهن.

وكأن الله سبحانه، أراد أن يبيّن بجلاء، أن الأنثى لا تقل أهمية عن الرجل في الحق بتقرير المصير ـ لا مصيرها وحدها في المجتمع ـ بل لها الحق في أن تدلي بِدَلْوِها، وتساهم مساهمةً فعّالة في تقرير مصير الأمة ككل، جنباً إلى جنب مع الرجل.

وهذا المصداق الواضح لتقرير المصير، هو عقد البيعة بين القاعدة والقيادة، وبين الحاكم والمحكوم، وبين الراعي والرعيّة.

وذلك الشاهد في كتاب الله على هذا، هو آية المبايعة من سورة الممتحنة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

---

(١) الممتحنة/ ١٢.

وقت نزول الآية؟

نزلت هذه الآية، كما في كتب التفسير[١]، يوم فتح مكّة، لما فرغ النبي ﷺ من بيعة الرجال وهو على الصَّفا، جاءته النساء يبايعنَه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية. وعندها قالت أم حكيم بنت الحارث بن هشام: يا رسول الله، كيف نبايعك؟ قال: إنني لا أصافح النساء، فدعا بقدح من ماء فأدخل فيه يده ثم أخرجها فقال: أَدْخِلْنَ أيديكنَّ في هذا الماء. وقيل: بأنه ﷺ بايعهن بالكلام بما ورد في هذه الآية. وقد نقل ذلك عن عائشة(رض). وقيل: إنه ﷺ بايعهُنَّ من وراء الثوب.

وهكذا تمت مبايعة النساء لرسول الله ﷺ.

معنى البيعة في الإسلام

وتتضح خطورة هذا الموقف الإسلامي، بالنسبة لإعطائه المرأة هذا الحق، حق عقد البيعة، إذا عرفنا ماذا تعني البيعة في منطق هذا الدين، ولمن تعقد مثل هذه البيعة.

فالبيعة في الإسلام، تعني الإقرار من المسلم والمسلمة لشخص المتولي للمنصب الإلهي، من نبيّ أو وصيّ نبيّ أنه ـ أولاً ـ أولى به من نفسه:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾[٢].

وأنه ـ ثانياً ـ المؤتمن على دين الأمة، ودماء أبنائها، وأموالهم، وأعراضهم:

(١) راجع مجمع البيان للطبرسي، ٩ و١٠/ ٢٧٦. والتفسير الكبير للرازي، ٢٩/ ٣٠٧.
(٢) الأحزاب/ ٦.

وأنه وحده له حق التصرف فيما أراد منها، كيفما أراد، من دون أن يكون لأحد أي اعتراض عليه:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

ذلك لأن النبيَّ لا يقول ما يقول، ولا يفعل ما يَفْعل، من عند نفسه، بل بوحي من الله سبحانه:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[2].

ولا يجوز لأحد من المسلمين أن يردّ له طلباً أو يعصيَ له أمراً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[3].

فإطاعة الرسول من إطاعة الله، وكذا معصيته:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ...﴾[4].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[5].

ويحذّر من التباطؤ عن دعوته إلى أي موقف من أيٍّ كان مع قدرته عليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾[6].

---

(١) الأحزاب/ ٣٦.
(٢) النجم/ ٣، ٤.
(٣) النساء/ ٥٩.
(٤) النساء/ ٨٠.
(٥) النساء/ ١٤.
(٦) الأنفال/ ٢٤.

فالبَيْعَةُ بكلمة: هي الإقرار والخضوع لعقد الرياسة العامة للأمة، لمن اختاره الله لهذا المنصب، وتقرير مصيرها، مطلقاً، في أمور الدين والدنيا على حدٍ سواء.

٦ ـ تعقيب واستنتاج

وهكذا، تكون المرأة من خلال أخذ البَيْعة منها كالرجل عَيْناً، فقد دخلت عنصراً أساسياً في تقرير هذا المصير، لا بالنسبة إلى نفسها فقط، وإنما بالنسبة إلى الأمة التي تنتمي إليها، هي والرجل على قدم المساواة، حيث لم يكتف الإسلام بمبايعة الرجال، واعتبار زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم داخلات في عقد المبايعة عن طريق التبعيّة، بل رحّب بتظاهرتهنَّ النسائية في المجتمع المؤمن.

هذه التظاهرة التي كانت ترفرف عليها رايات الإسلام الواعي، المدرك لحقيقة ما يفعَلْنَ، وما هنَّ مقدمات عليه.

يؤكد كل ما ذكرت، ما سبق وبيَّنته من أسباب النزول: «بايع الرجال، ثم جاءت النساء يبايعْنَه...».

وما سبق وذكرت أيضاً، من استفهام أم حكيم بنت الحارث ـ ولعلها كانت هي التي تتقدم هذه التظاهرة المباركة ـ منه ﷺ عن ماذا يبايعنه، وعلى ماذا. وكيف؟

فبيّن لهن رسول الله ﷺ كل ذلك كما أنزله الله، بل أكثر من البيان، استغفر لهن الله ممتثلاً أمر ربه في نفس الآية الكريمة:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

«والوجه في بَيعة النساء، مع أنهنَّ لَسْنَ من أهل النصرة بالمحاربة

(حيث وضع عنهن الجهاد بالسيف)، هو أخذ العهد عليهن بما يصلح من شأنهن في الدين والأَنْفُس والأزواج، وكان ذلك في صدر الإسلام، ولئلا ينفتق بهنّ فتق لما وضع من الأحكام، فبايعهنَّ ﷺ حَسْماً لذلك...»[١].

(١) الطبرسي: مجمع البيان ٩ و١٠/ ٢٧٦.

- ٤ -

المرأة ومصيرها الأسروي وقائع وشواهد

مدخل

كما أعطى الإسلام المرأة الحق في أن تشارك في تقرير مصير أمة، من خلال عقد البيعة لوليّ الأمر.

وحيث أن الأسرة، هي اللبنة الأولى في جسم هذه الأمّة.

وبما أن المرأة هي ركن أساس في تكوين هذه الأسرة، باعتبارها زوجة وأماً.

فلا بد من أن يعطي الإسلام هذه المرأة، حق تقرير مصيرها الأسروي بطريق أَوْلى.

ولكن، كيف...؟

١ - مفهوم العلاقة الزوجية في الإسلام

وقبل أن نعرف، كيف أعطى الإسلام المرأة حق تقرير مصيرها الأسروي، لا بد من أن نفهم ما هي نظرة الإسلام إلى العلاقة الزوجية التي تكون المرأة أحد طَرَفيها...

إن العلاقة الزوجية في الإسلام، ليست صفقة تجارية، تكون المرأة السلعة فيها، والرجل هو المشتري.

وليس الملحوظ في هذه العلاقة ـ أولاً وبالذات ـ الغريزة الحيوانية والشَّبَق الجنسي، بحيث تعتبر المرأة الوعاء الذي يقذف فيه الرجل صديده.

كما إن المرأة ليست جارية في بيت زوجها، يستخدمها بعد زواجها منه، لخدمته وتلبية ما يأمرها به من كنس وطبخ وغسل وما إلى ذلك، حيث لم يوجب الإسلام عليها ـ بإجماع الفقهاء ـ أياً من هذه الشؤون المنزلية.

بل نصّ الفقهاء المسلمون على أنه يجب على الزوج إن كانت زوجته من شأنها في بيت أهلها أن تُخْدَمَ، استئجار خادمة شخصية لها تخدمها.

بل إن الفقهاء المسلمين، مع كونهم نصّوا على أن الحضانة للطفل وإرضاعه في العامين الأولين من عمره، هما من حق الأم في الدرجة الأولى، إلا أنهم لم يجبروها على أي منهما، إلا إذا توقفت حياة الطفل عليه.

كما نصّوا على أن من حقّها أن تطلب من الأب أجرة على إرضاع طفلها منه، إذا أرادت ذلك، بشرط أن تكون أجرة المثل، أي أن لا تزيد الأجرة المطلوبة من قِبَل الأم أزيد مما تطلبه أية مرضعة أجنبية من المرضعات.

وقد استند الفقهاء في ذلك إلى قوله تعالى:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا

وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

فالزوجية ـ إذَنْ ـ في الإسلام، علاقة تجلّلها الكرامة والاحترام المتبادل، وتُسَرْبلها القدسية، وترعاها عين الله، وينسج خيوطها عهده وميثاقه الغليظ، كما نطق به رسول الله ﷺ:

«اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بعهد الله، واستحللتم فروجَهُنَّ بكلمة الله...».

وكل هذه المعاني وغيرها، التي تستنبطها العلاقة الزوجية في الإسلام، تبرز بوضوح أمام أعْيننا، عندما نطّلع على الآيات القرآنية التي وردت بهذا الصدد، فتجعلنا نهتز لما تحمله في طياتها وثناياها من الحنان الدافق، والعاطفة الإنسانية النبيلة.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً...﴾(٢).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾(٣).

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾(٤).

فأيّة إيحاءات سامية، تلك التي تؤديها هذه الآيات؟

---

(١) البقرة/ ٢٣٣. والمولود له: هو الأب.
(٢) النحل/ ٧٢.
(٣) الروم/ ٢١.
(٤) آل عمران/ ١٩٥.

وأيّة معانٍ أصفى من هذه المعاني، يمكن أن تجسّدها كلمات.

إيحاءات بأن الزوجية في الدرجة الأولى، نعمة مجعولة منه سبحانه وحده.

وأنها ليست من مقولة أخرى غير مقولة الرجل، وإنما هي في الحقيقة من طينته ومقولته، فلا اثنينية في عالم التكوين الأول، والصيرورة الأولى. فلاحظوا التعبير القرآني:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم...﴾.

ولاحظوا التعبير القرآني:

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾.

لقد كرّم الله هذا الإنسان، ذَكَرِه وأنثاه، فوصف هذه الأنثى بأنها شطر النفس الإنسانية، التي يؤلف الذكر شطرها الآخر، من دون تفاضل عنده سبحانه بين هذين الشطرَيْن في الكرامة.

ولقد اقتضت حكمته، أن تنشأ الحياة في عالم الإنسان ـ كما في العوالم الأخرى ـ من زوجين ذكر وأنثى، وأصالة الأنثى في الحياة الإنسانية، كأصالة الذكر، إن لم نقل أعمق وأشدّ، لأنها الوعاء الذي يحتضن البذرة فتنمو فيه وتتحوّل، إلى أن تخرج إنساناً سوياً، ابناً أو بنتاً، لتتواصل من خلال كل منهما عملية التناسل والتكاثر، طبقة بعد طبقة من الحَفَدَة، وأبنائهم، ومن خلال الأبناء والحَفَدَة هؤلاء، يشعر الإنسان المحدود في الزمان والمكان، بالامتداد عبرهم في مستقبل الأزمنة على امتداد رقعة هذه الأرض، كل ذلك من نِعَم الله على هذا المخلوق:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

تأملوا كل ذلك، لتدركوا معي عمق معناه، وشموخ مغزاه.

كما أن الغرضَ الجوهري من العلاقة الزوجية في منطق الإسلام، هو السُّكنى، المشتقة من السَّكَن والطمأنينة والاستقرار:

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا...﴾.

كما يوحي التعبير القرآني:

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ برقَّة، ودفقة حنان، أراد لها أن تكون السّدى واللُّحمة في مثل هذه العلاقة المقدّسة، بجَعْل منه سبحانه، ولطف خاص بالنوع الإنساني.

كل ذلك، لتكون الزوجية بحق، مَصْنَعاً تعمل كل أجزائه بتناغم وتناسق وانسجام، لِتنتجَ الأجيال الصالحة على امتداد الزمان والمكان.

ولتتحركَ هذه الأجيال بسلام وأمان، واطمئنان، كل ما يُسِّرَ له، نحو تحقيق المفهوم الجوهري لفلسفة خلافة الإنسان على هذه الأرض، وفي هذه الحياة، والذي يعني: إغناء الحضارة الإنسانية وإثراءَها على الدوام، وفقَ الهدى الإلهي، بكل ما يوفّر الخير والرفاه للمجتمع العابد في الأرض.

كل هذه المعاني، بما تَتَضمَّنُهُ من قِيَم، تشير بصدق ووضوح إلى حكمة الخالق فيما خَلَق، وعظمته فيما ذرأ وبرأ، من خلال تكامل هذا المخلوق الفريد، فيكون ذلك طريقاً له إلى معرفة الله بسبب معرفة الإنسان لآيات ربّه في نفسه وفي الآفاق، وإدراكه لموقعه الرائد في هذا الكون:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ . . .﴾[1].

ثم يأتي التعبير القرآني، موجّهاً الخطاب إلى أفراد النوع الإنساني بشكل عام، ودون استثناء، ليكرّس الحقيقة الراسخة بحَزْم:

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ . . .﴾.

وإذا كانت العلاقة الزوجية في المنظور الإسلامي، مشاركة حياتية حقيقية بين الذكر والأنثى، تَسْتغرق رحلة العمر كلها.

ولكي تتحقق هذه المشاركة على وجهها السليم والصحيح، ويتحقق من خلالها الهدف الأسمى الذي أريد له أن يكون تتويجاً لها.

كان لا بد أن يأخذ طرفاها بعين الاعتبار، ويضعا في الحسبان قبل الانطلاق في الخطوة الأولى منها، عنصراً من أهم العناصر في نجاحها، وبقائها، وديمومتها، وهو الانسجام التام بينهما كرفيقين في طريق واحدة، وشريكين في عملية مصير واحد، وراكبَين وسط أمواج بحر الحياة المتلاطمة في سفينة واحدة.

ولا إشكال في أن هذا الانسجام لا يمكن أن يتحقق، إلا من خلال إعطاء المرأة الحق في حرية اختيار رفيق دربها في الحياة، وُفْقَ ما يتوافق مع طباعها، ورغبتها، ومزاجها.

من أجل ذلك، كانت المرأة في الإسلام هي صاحبة القرار في ذلك، فلا يحق لأحد مَن كان أن يقرر أو يختار نيابة عنها إلا برضاها.

---

(١) فُصِّلَت/ ٥٣.

وأي زواج لا يكون لها رأي فيه، ولا اختيار ولا إرادة، فهو محكوم بالبطلان في الشريعة المقدّسة. سواء كانت تلك المرأة بِكراً رشيدة، أو ثيّباً، أرملة أو مطلّقة. وذلك بإجماع فقهاء المذهَب الجعفري.

ولو زوّجها أبوها وهي ما تزال صغيرة، فقد نص فقهاء المذهب الجعفري[١] على أن مثل هذا التزويج يشترط في صحته ونفوذه عدم وجود مفسدة فيه للصغيرة، ومع ذلك، فللصغيرة إذا بلغت حق الخيار في هذا الزواج، بمعنى أن لها الحق أن تفسخه إذا لم يناسبها ولم ترضَ به.

٢ ـ وقائع وشواهد

ونحن عندما نستقرئ بعض صفحات من التاريخ الإسلامي في عصر النبي ﷺ، نستوحيها ونستنطقها، نجد فيها وقائع وشواهد، تؤكد ما ذكرناه، من موقف الإسلام في النقطة مدار البحث.

من ذلك ـ على سبيل المثال ـ :

ما رُوِيَ[٢] عن رسول الله ﷺ، «أن جارية[٣] بِكْراً، أتَتْ رسول الله ﷺ، فذكرت أن أباها زوّجها، وهي كارهة. فَخَيَّرَها النبي ﷺ...».

---

(١) السيد السيستاني: منهاج الصالحين ٣/ ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) راجع ذلك كله وغيره في كتاب وسائل الشيعة إلى مسائل الشريعة، للحر العاملي، كتاب النكاح، أبواب عقد النكاح وأولياء العقد، ١٤/ ١٩٥ وما بعدها. ونيل الأوطار للشوكاني، ٦/ ١٣٧ وما بعدها.
(٣) الجارية: مفرد جوارٍ وجاريات، ألفتيّة من النساء حُرّةً كانت أو عَبْدةً، والمقصود هنا الحرّة.

وعندما نتأمل في عبارة: «فَخَيَّرها النبي»، ندرك بوضوح، أنه ﷺ ترك لها الباب مفتوحاً لكي تقرر بنفسها مصير هذه العلاقة التي جُعِلَت طرفاً فيها، على كراهية منها...

ومن ذلك ما رُوِيَ أيضاً، من أن الخنساء بنت خذام الأنصارية، قد زوّجَها أبوها «وهي ثيّب، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فَرَدَّ نكاحها».

ومن ذلك ما رُوِي من أن فتاةً «جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبي زوّجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته؟ قال: فجعل الأمر إليها. فقالت: قد أَجَزتُ ما صنع أبي، ولكن أردتُ أن أُعْلِمَ النساء أنْ ليس إلى الآباء من الأمر شيء»!!...

جرأة أدبية ووعي رائع

ونحن، عندما نتأمل بدقّة، هذه الواقعةَ الأخيرة، في تاريخ الأمة، نستنتج منها ثلاثة دروس كلها تقوم على أساس من الإيمان الصادق.

الأول: هذه الجرأة الأدبية، التي تدفع بامرأة من نساء المسلمين، إلى أن تبادر بعرض مشكلتها على ولي الأمر بنفسها، ليقول فيها رأيه من دون وسيط، مع أن طرف المشكلة الأساس هو أبوها.

وهذا المعنى، واضح أيضاً، في الواقعتَيْن الأَوْلَيَتَين اللتين عرضنا لهما قبل قليل.

الثاني: هذا الموقف الإسلامي الصادر عن ولي الأمر الممثل لكلمة السماء، وحكم الله في الأرض من المشكلة ككل، حيث جعل

الأمر إليها، وأفهمها من خلال موقفه هذا، أنها سيدة نفسها في اختيار أي الاتجاهين، سلباً أو إيجاباً.

وهذا المعنى عينه أيضاً، نجده كما سبق وعرضناه في الواقعتين السابقتين.

الثالث: وهو ذو بُعْدَين مُشْرِقَيْن يشعّان فتخشع لهما الأبصار، وتُكْبِرُهُما البصائر.

أوّلهما: ذلك البِرّ البَنَويُّ الذي ربّى الإسلام عليه المسلم بالنسبة إلى والدَيْه، حيث حذّره من عقوقهما في قول أو فِعْل.

وقَرَنه سبحانه بعبادته والخضوع له:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا...﴾[1].

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ...﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «من آذى والديه فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فهو ملعون»[3].

وقال ﷺ: «رضى الله مع رضى الوالدَين، وسَخَطُ الله مع سَخَط الوالدين»[4].

ذلك البر، الذي نَضَحَت به كلمات تلك الفتاة المسلمة، بعد أن

---

(١) الإسراء/ ٢٣، ٢٤

(٢) الإسراء/٢٣، ٢٤.

(٣) مستدرك الوسائل، ٢/ الباب ٧٥، ح ٢٠.

(٤) البحار، للمجلسي، ج ٧٤/ ٨٠، ح ١/ ٨٢.

بيّن لها رسول الله ﷺ رأي الإسلام في مشكلتها، وأنها سيدة موقفها: «قد أجَزْتُ ما صنع أبي» إنفاذاً لرغبته، وحرصاً على كرامته وقدسية وعده الذي أعطاه، وعهده الذي قطعه على نفسه لابن أخيه بتزويج ابنته منه.

وثانيهما: هذا الإدراك الواعي لدور المرأة المسلمة في الأمة، ومسؤوليتها ـ لا بالنسبة لما يتعلق بشخصها فقط ـ بل لبنات جنسها في المجتمع بشكل خاص، ولأفراد مجتمعها بشكل عام.

هذا الإدراك الواعي، الذي يبدو بوضوح من خلال كلمة تلك المرأة:

«ولكن أردتُ أن أُعلِم النساءَ أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء»!!.

فهي بهذه الكلمة، قد أَفْصَحَت عن غرضها الأهم من هذا الموقف التظاهرة بحركتها للمثول بين يدي رسول الله ﷺ، لتعطي كل مسلمة درساً في تكريم الإسلام للأنثى، ونظرته السامية إليها، ولتُلفِتَ نظر الآباء إلى ضرورة ضبط تصرفاتهم حيال بناتهم وُفْق أحكام هذا الدين الحكيم، لا لأهوائهم ورغباتهم وأعرافهم.

٣ ـ شرطية إذْن الأب في زواج البِكر

لقد فهمنا من الشواهد المتقدمة وغيرها، بما لا يقبل الشك، أن الأب، وهو ألصق الناس بابنته، ليس له بحكم الإسلام، أن يكره ابنته على الاقتران برجل لا تريده، أو أن يتصرف فيما هو من حقها وحدها دون استشارتها، وأخذ موافقتها.

ومع ذلك، لا بد من التنبيه إلى أن الإسلام، جعل إذن الأب وموافقته على زواج ابنته ممن تختاره هي زوجاً لها، إذا كانت بِكْراً رشيدة، شرطاً في صحة الزواج ونفاذه.

دون ما إذا كانت ثيّباً، أرملة أو مطلّقة.

توهّم ودَفْع

وقد يتوهّم مُتَوَهِّم هنا، فيرى في اشتراط إذْن الأب في صحة ونفاذ زواج ابنته البِكْر، ممن تختاره هي بنفسها زوجاً، قيداً من القيود التي تتنافى مع ما نحن بصدد بحثه وتوضيحه، من حق المرأة المسلمة في تقرير مصيرها الأسروي.

حِكْمَةٌ وحُكْم

ولكن هذا التوهم، يندفع بمجرد الالتفات إلى الحكمة البالغة في مثل هذا الاشتراط، وأنه ليس له أدنى علاقة بذلك، بل ليس فيه أي غمط من حقها في تقرير مصيرها.

إذ إن من الواضح، أن البِكْر، غالباً ما تكون عند الزواج في سن يافعة، وقد تكون ما زالت في سن المراهقة، التي تَتَزامَنُ مع حالة من عدم النضج، ومحدودية الأُفق، والخِبْرة، وهذا أمر طبيعي، إذ إنها في مثل هذه السنّ، لا تكون بَعْدُ قد خاضت غمارَ الحياة العملية، وعَرَكَتْها، مما يجعلها عديمة التجربة إلى حدِ كبير، وبالتالي، فهي لا تملك القدرة على اختيار الأصلح لها من المواقف، فيما يتعلق بحياتها ومستقبلها.

وهي، إن اختارت موقفاً مُعيناً، فغالباً ما تلعب العاطفة المتأججة، والرغبة الضاغطة، والمزاج الآني والعفوي، دورها الكبير فيه. مما

يجعله موقفاً متزلزلاً لا يستند إلى أرضية صلبة، وبالتالي، فيه من الخطورة والضرر ما لا تُحمد عقباه، خاصة في أمر مصيري، كالذي نحن بصدد الحديث عنه وهو الزواج.

وهنا، ندرك الحكمة البالغة في اشتراط نفاذ زواجها وصحته بمقتضى حكم الشريعة الإسلامية، بإذن الأب وموافقته.

إذ إن الفتاة في مثل هذه السن، بما تستبطنه من مزالق ومخاطر أشرنا إليها، تحتاج إلى صمام أمان يحول بينها وبين التردّي، والسقوط فيما يعود عليها، وعلى أهلها بالأضرار الكبيرة، والآثار السلبية، معنوياً ومادياً.

وصمام الأمان هنا، هو حكمة الأب، وسعة دائرة تجاربه في الحياة، باعتبار سنّه المتقدمة عادة، ومعرفته بالناس وأوضاعهم، ومواضعاتهم، وأنماط سلوكهم، تضاف إلى ذلك كله، عاطفته الأبوية، التي تحول بينه وبين التفريط في سعادة ابنة تعب في تربيتها وتوجيهها، وتحمله على الحرص، والحيطة، لضمان مستقبل واعدٍ لها في كنَف رجل صالح وأمين.

وبما ذكرنا، يتضح أن اشتراط إذن مثل هذا الأب في صحة زواج ابنته البكر ونفاذه، لم يوضع ليقيّد حق الأنثى هذه في تقرير مصيرها الأسروي، وإنما وُضع لها ـ بلحاظ تلك الاعتبارات ـ ليحفظها من أن تسيء استعمال هذا الحق المعطى لها في الإسلام، وليرشّدها في أعماله.

وليصونها من اتخاذ موقف متسرّع تنقصه التجربة، ويعوزه النضج، فتجرّ على نفسها شقاء وتعاسة، ولأسرتها قلقاً مقيماً وألماً دائماً.

والذي يزيد ما أردنا قوله وضوحاً، أمران لا غموض فيهما ولا لَبْس، يتضمن كلاً منهما حكماً إلهياً يرتبط بهذا الحق الأبوي.

أوّلهما: إن إذن الأب ـ هنا ـ يسقط[1] في نظر الشرع عن الاعتبار، عندما يثبت أن الأب يسيء استعمال حقه لغرض في نفسه يتعلق بمصلحته هو لا بمصلحة ابنته.

كأن يكون من وراء مَنْع ابنته من التزويج وُفق اختيارها، مع كون من اختارته كفؤاً لها، استغلالها مادياً أو معنوياً، كما قد يحصل كثيراً في مجتمعنا، حيث ينظر بعض الآباء إلى بناتهنَّ كسلعة تجارية يبتغي من ورائها الربح، فيتربّصون بهن مَنْ يدفع المهر الأغلى، ليجنوا بذلك الربح الأوْفَر!؟!.

أو ليطيلوا فترة بقائها في البيت، ليستفيدوا من خدمتها لهم فيه.

أو من راتبها إذا كانت عاملة.

أو لأن الأب كان يكره الخاطب لها من دون مبرر شرعي أو عقلائي. اللهم إلا مزاج الأب العشوائي، أو مرضه النفسي، مع كون هذا الخاطب يتمتع بالتدين والأخلاق والسمعة الطيّبة، والمدخول المادي الكافي لمتطلبات الزواج وتأثيث بيت الزوجية.

ففي كل هذه الصور المذكورة، لا يعود اشتراط الإذن وارداً بالنسبة لزواج ابنته البكر، خاصة إذا كانت بحاجة إلى أن تعفّ نفسها وكان في عدمه حرج عليها.

---

(١) راجع شرائع الإسلام، للمحقق الحلي، ٢/ ٢٧٧. وجواهر الكلام، لمحمد حسن النجفي، ٢٩/ ١٧٠ وما بعدها.

فلها في مثل هذه الحال أن تتزوج من دون استئذان مثل هذا الأب.

وكذلك، لها أن تتزوج إذا لم يكن الاستئذان ممكناً، كسفره الطويل، أو سجنه كذلك مع عدم إمكان الاتصال به، وحاجتها إلى الزواج[١].

وثانيهما: إن اشتراط هذا الإذن من الأب، لو كان فيه شيء مما تتوهم بأنه انتقاص من حق الأنثى في تقرير مصيرها الأسروي، لكان وارداً بالنسبة للمرأة الثيّب بسبب الطلاق أو الترمّل، مع أن إذن الأب ليس شرطاً في صحة زواجها ونفاذه، وليس له أي حق في الاعتراض على ذلك[٢].

وما ذلك ـ هنا ـ ، إلاّ لأن المطلّقة أو الأرملة، غالباً ما تكون في سنّ قد عَرَكت الحياة واكتسبت الخبرة الكافية، إلى حد جعل عندها الوعي الكافي لاختيار الأصلح، وأصبحت من النضج بحيث تستطيع أن تكبح جماح النزق والنزوة، وتتحكم بمشاعرها.

لا أقل من أنها قد مرت بتجربة زواج ناجح أو فاشل، واكتشفت من خلال هذه التجربة، كثيراً من الأسباب السلبية أو الإيجابية التي أدت إلى ذلك الفشل أو هذا النجاح، مما يؤهلها لموقف جديد، تتجنب فيه تلك السلبيات، وتؤكد الإيجابيات.

فهذان الأمران، يلقيان الضوء على الحكمة الكامنة وراء عدم

---

(١) السيد الخوئي: المسائل المنتخبة، مسألة رقم ٩٠٩، ط ٧. كما يراجع شرائع الإسلام، للمحقق الحلي، ٢/ ٢٧٧.

(٢) م.ن.

اشتراط إذن الأب هنا، واشتراطه هناك في صحة زواج البنت البكر، مما يكشف عن منطقية هذا التشريع المقصود منه في كلتا الحالتين مصلحة المرأة واستقرارها وحفظ كرامتها. من دون أن يكون فيه ما يقيّد حقها في تقرير مصيرها الأسروي، أو يلغي هذا الحق.

٤ ـ حكم إلهي آخر

وهنالك حكم آخر مثبت في الشريعة الإسلامية، يمكن أن يؤكد حق تقرير الأنثى لمصيرها الأسروي، وأن الأب ليس ديكتاتوراً يجب على البنت أن تخضع لما يقرره في شأنها من دون اختيار لها ولا رضا، وتركن إلى سلطانه في المطلق.

هذا الحكم ـ وقد أشرنا إليه سابقاً ـ ينصّ على أن الأب إذا زوّج ابنته الصغيرة التي لم تبلغ بعد، من طفل آخر، أو رجل، فإن كان في هذا الزواج مفسدة للصغيرة، أو لم يكن لها مصلحة فيه، فقد حكم الفقهاء ببطلان هذا الزواج.

وإن كان فيه مصلحة للصغيرة، فقد جعل الإسلام لها في هذه الحالة الحق، عندما تبلغ رشيدة، أن تفسخ هذا الزواج إن لم يعجبها وكانت كارهة له. وعندئذٍ لا يكون من حق الأب أن يعترض أو يمنع.

وفي كل الحالات، لا يكون لتصرف الأب، بمصير ابنته في صغرها أي أثر.

وإن كان الأحوط في حال فسخها لهذا الزواج، أو في حال رضاها به بعد بلوغها، أن يوقع الطلاق، ويجدّد العقد[1].

---

(١) راجع المسائل المنتخبة، للإمام الخوئي، ص ٢٤٥.

ولا بد من التنبيه، على أن إيقاع الطلاق مع الفسخ، وتجديد العقد مع الرضا بالزواج بعد البلوغ، إنما هو من باب الاحتياط ليس إلاّ، باعتبار أن الموضوع يتعلق بالفروج، وهو ما يتشدد الشارع المقدس في شأنه ـ كما يُسْتَشَمُّ من مَذاقه ـ كتشدده فيما يتعلق بالدماء والأموال، بهدف المحافظة على طهارة المواليد، وصراحة الأنساب، وقداسة الأسرة.

٥ ـ شاهد ينطق بالحق

ومن جملة ما يصلح برهاناً على أحقية المرأة المسلمة في تقرير مصيرها الأسروي، أن الشريعة المقدسة، قد أعطتها ضمانة أكيدة، تستطيع من خلال إعمالها عند الحاجة، وعندما لا ينطبق حساب الحقل على حساب البيدر ـ كما يقال ـ حيث ينكشف لها بعد زواجها، أن الزوج العتيد الذي اختارت الاقتران به، لم يكن عتيداً كما تصوّرت، أو أن أموراً استجدّت بعد الزواج منه، جعلت من حياتها الزوجية مصدر قلق وشقاء، بحيث لا يمكن لها مواصلتها، أو البقاء في دوامتها.

هذه الضمانة، هي أن من حقّها أن تشترط على الزوج ضمن عقد الزواج، أن تكون وكيلة عنه في طلاق نفسها متى شاءت، وهذه الوكالة لا تقبل العزل.

والقول[١] بشرعية هذه الوكالة ضمن العقد، مجمع عليه بين الفقهاء المسلمين، ونحن نشجّع النساء على العمل بمقتضاه في هذا العصر، باعتباره سلاحاً تدّخره المرأة لتمنع به شريحة لا يستهان بعددها من الأزواج الذين يريدون التحكّم بزوجاتهم بعد الزواج ويبتزّونهنّ،

(١) راجع المسائل المنتخبة، للإمام الخوئي، مسألة رقم/ ١٠٤٥. وشرائع الإسلام، للمحقق الحلي، ٢/ كتاب النكاح.

ويذيقونهنَّ الأَمَرَّين، ويمتنعون عن طلاقهنَّ إلاّ إذا دفَعْنَ لهم أموالاً طائلة؟!!. وهذا ما يحدث كثيراً في أيامنا هذه.

٦ ـ حق الفسخ: ضمانة جديدة

من المتعارف عليه، أن الأنثى عندما تختار الاقتران بالشخص الخاطب يدها، إنما تختاره على ضوء ما تكون قد اطلعت عليه فيه من مواصفات ظاهرة.

ولكن كثيراً من الجوانب النفسية والجسدية لا يمكن قبل الزواج أن تكتشفها فيه، لأن وقت انكشافها أمامها، واطلاعها عليها، إنما يكون بعد العقد، أو بعد الدخول.

وعليه، فلو اقترنت المرأة برجل، وفقاً لمواصفاته الظاهرة، ثم انكشف بعد عقد الزواج أن فيه بعض الأمراض التي لا يمكن لحياة زوجية أن تستقيم مع وجودها، من الناحيتين النفسية والجسدية، كأن اكتشفت اختلالاً في قواه العقلية، أو وجدته خصياً، أو عِنّيناً، أو فيه مرض عطّل الجهاز التناسلي لديه بحيث لا يستطيع ممارسة العمل الجنسي مع زوجته، أو كان مصاباً بمرضٍ مُعْدٍ تخشى منه المرأة على حياتها، كالجذام والبرص والإيدز مثلاً، ففي كل هذه الحالات، أعطى الشارع المقدس للأنثى الحق في فسخ عقد الزواج بنفسها، وفوراً، من دون رجوع إلى حاكم أو غيره[1]. إذ لا يعقل عندئذٍ، أن تموت الزوجة

---

(١) إلاّ في العَنَن، حيث أجمع الفقهاء المسلمون، على أنه لا يحق للزوجة أن تفسخ النكاح فوراً وبنفسها، بل يجب عليها أن تراجع الحاكم الشرعي، فإذا ثبت عنده عنّة الزوج أجّله سنة للعلاج، فإذا انتهت السنة وبقي على حاله من العَنّة، فللزوجة أن تفسخ زواجها منه بنفسها فوراً من دون مراجعة أحد، حتى الحاكم الشرعي. راجع جواهر الكلام، للنجفي، ج٢٩، المقصد الثاني، المسألة ٣. ومنهاج الصالحين، للإمام السيستاني، ٣/ ٨٣ وما بعدها.

موتاً بطيئاً، في ظل زوجية صورية، لم تستوف أبسط قواعد السكينة والاستقرار.

ولا بد من لفت النظر إلى ما تضمنه هذا الحكم، وهو حقَ الزوجة في فسخ عقد الزوجية من وضوح، مع ما استبطنه من سرعة في تنفيذه.

إذ ليس معنى الفسخ، أن تقول الزوجة، فسخت عقد زواجي منك، بلا تعقيد وبلا إشكاليات، قد تعيق أو تطيل ولو إلى لحظات من عمر مأساة لم يكن لها دخالة في صنعها، وعليه، فليس من العدل أن تتحمّل شيئاً من وزرها.

وهل بعد هذا، أية شبهة حول أن الإسلام يأبى إلا أن يكون للأنثى ـ ككائن مكرّم ـ حق تقرير مصيرها الأسروي، من دون ضغط ولا إكراه.

بل إن الفقهاء المسلمين، تعرّضوا لمسألة التدليس، فقالوا إن الرجل إذا خطب امرأة، وقدّم نفسه إليها على أنه من عائلة مرموقة ذات حَسَب ونَسَب وشرف: «فتزوجته على ذلك، فبان أنه من (غير هذه العائلة) كان لها خيار التدليس (والفسخ)، فإن فسخت فلها المهر كاملاً إذا كان بعد الدخول»[١].

٧ ـ دلالة الطلاق الخلعي والمبارأة

ودلالة الطلاق الخلعي، والمبارأة، على حق المرأة في تقرير مصيرها، لا تقل عما تقدم من شواهد.

من المعلوم أن الطلاق في الشريعة الإسلامية على نوعين:

---

(١) راجع منهاج الصالحين، م. س، ص ٨٨.

الطلاق الرجعي: وهو الذي يوقعه الزوج، مع ثبوت الحق له بالرجوع إلى زوجته متى شاء، من دون عقد جديد، ما دامت الزوجة في العدَّة.

الطلاق البائن: وهذا يحصل في موارد منها:

الطلاق الخلعي[1]: وهو أن تكره المرأة زوجها، فتبذل له مهرها ـ إن كان لها في ذمته مهر ـ أو أي مبلغ من المال يرضى به، ليطلّقها مقابل ذلك.

المبارأة: وهو أن تكون الكراهة من الطرفين، كل من الزوجين للآخر، فتبذل المرأة لزوجها مالاً، ليطلّقها مقابل ذلك، بشرط أن لا يكون ما تبذله المرأة للزوج هنا، أكثر من مهرها، بل الأحوط أن يكون أقل.

ومعنى كون الطلاق في الموردَين بائناً، أنه لا يحق ولا يجوز للزوج الرجوع فيه، ما لم ترجع الزوجة في ما افتدت به نفسها من مال قبل انتهاء العدة. وإن لم يحصل الرجوع فيها ومات أحدهما في أثنائها فلا توارث بينهما.

وكلا الموردين، مشروطان بنفس شرائط الطلاق الصحيح، وتنطبق عليهما أحكامه.

وفي كلا الموردين، تكون المرأة هي سيدة موقفها، ولا يعود للزوج أية حيلة في إرجاعها إلى حبائل الزوجية ما لم توافق هي على ذلك.

---

(١) راجع في ماهية كل من طلاق الخلع والمبارأة: منهاج الصالحين للإمام السيستاني، ٣/ ١٩١ وما بعدها. وجواهر الكلام، م. س. المسألة الرابعة من النظر الرابع.

ومن هنا، يكون كل من الخلع والمبارأة، شاهدين جديدين، على أن للمرأة في الإسلام الحق في تقرير مصيرها الأسروي، عندما لا تعود الحياة الزوجية قابلة للاستمرار، نتيجة كرهها لزوجها، أو كرهه هو لها.

عَضْلُ الزوج لزوجته

العَضْل ـ لغة ـ : التضييق.

قد يتوهّم متوهّم، عندما يطّلع على ما قلناه آنفاً، بأن هذا الحكم الشرعي بجواز استنقاذ المرأة نفسها من الزوجة الكارهة لزوجها، والزوج الكاره لزوجته، قد يشجّع كثيراً من الأزواج على ظلم زوجاتِهِمْ، والتضييق عليهنّ، والتنكيل بهنَّ، ويُهملْنَ أمرهنَّ، فيمسكون إضراراً طمعاً في ابتزازهنَّ مادياً، إما ليتنازلنَ لهم عما يكون لهن من مهور، أو ليعطينهم أموالاً تكون في حوزتهنَّ ملكاً لهنَّ حتى يطلقونهنَّ.

وهذا هو المقصود بالعَضْل، على القول الأصح والأظهر[١].

وهنا، نلفت نظر هذا المتوهم، إلى أن الإسلام قد وضع في الحسبان حصول مثل ذلك من قِبَل بعض الأزواج العديمي الضمائر، ولذا ورد القرآن الكريم محرّماً مثل هذا التصرف، ناهياً عنه.

وقد عبّر عن هذا الموقف القبيح من الأزواج بالعَضْل.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢].

(١) راجع تفسير مجمع البيان، للطبرسي، ٣/ ٢٤.
(٢) النساء/ ١٩.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا[1] فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[2].

فأي تحريم أغلظ من هذا التحريم، وأي نهي أشد زجراً للزوج من هذا النهي، حيث عبّر عن موقفه هذا ـ إن حصل ـ بالبهتان، والإثم المبين!!.

حتى ولو كان ما تملك زوجاتهم من مهر قنطاراً لكل واحدة، لا عدة مئات، أو بضعة ألوف من الليرات، فلا يحل لهم منه ـ بهذا الأسلوب ـ شيء قلَّ أو كَثُر.

وقد أفتى الفقهاء[3]، بأنه إذا كان منشأ كراهة الزوجة لزوجها وطلبها الطلاق منه، هو إيذاء الزوج لها بالسَّبّ والشتم والضرب ونحو ذلك، فأرادت تخليص نفسها منه، فبذلت شيئاً ليطلقها فالظاهر عدم صحة البذل، ولا يملك الزوج المال المبذول من الزوجة، والظاهر أيضاً بطلانُ الطلاق خلعاً بل مطلقاً على الأقرب.

---

(١) قيل: القنطار مِلْء جِلْد ثَوْر ذهباً، أو دية الإنسان وهي ألف دينار ذهباً.
(٢) النساء/ ٢٠، ٢١.
(٣) راجع منهاج الصالحين، م. س. ص ١٩٣.

- ٥ -
كلمة أخيرة

وبعد:

يا بنات الإسلام، وربائبَ الإيمان.

هذا هو الواقع المعاش لبنات جنسكنَّ عبر التاريخ، في العصور الغابرة، وفي ظل الجاهليات المتعدّدة، كما في ظل الجاهلية الحديثة، حيث عوملت فيها الأنثى كشيء من سِقْط المتاع، وسلعة من السلع، تتقاذفها الأرجل، وتتلقفها الأيدي، بلا كرامة، ولا حقوق، تصرخ فلا سامع، وتئنّ وتتوجّع فلا عابئ، ترسف في قيود عبوديتها للرجل زوجاً كان أو أباً، أو سيداً اقتناها بحفنة من المال، بعد أن عرضها سيّدها الأول في السوق للبيع إن استنفذ أغراضه الحيوانية منها.

ثم رفع أمامها بعض الرجال الذين كانوا السبب في شقائها وتعاستها أساساً، شعارات مغرضة، وأطلقوا في أذنها كلمات معسولة، وحرّضوها، وحثّوها على أن تتحرر من القيود والأغلال التي كبّلها بها الرجل!!؟ وأن تطالب بمساواتها به في الحقوق والواجبات وفرص العمل، فانخدعت بهذه الشعارات، وأعمت بصيرتها تلك الكلمات فاندفعت بلا وعي في الاتجاه المرسوم لها من قِبَل هؤلاء الذئاب، فوقعت في المصيَدَة.

فماذا كانت النتيجة؟

لقد انتقلت ـ كما صوّرنا ـ من عبودية، إلى عبودية أعمق، ومن تعاسة إلى تعاسة أوسع وأكبر، وتحوّلت إلى آلة يديرها رب العمل كيف شاء، ومتى شاء، مستغلاً ليدها، كاستغلاله لأية آلة من حديد أو خشب يملكها في مصنعه، ليزيد إنتاجه بأقل كلفة، ومستغلاً لجسدها في إشباع غرائزه الحيوانية، مقابل أجر زهيد يدفعه إليها، ثم يطردها عندما يقتنص طريدة جديدة يجد فيها حيوية أكبر، أو لذّة أوفر!!؟

وأنتنّ يا بناتِ الإسلام وربائبَ الإيمان، هذا هو موقعكنَّ في هذا الدين، موقع قيادي، وريادي، سواء فيما يتعلّق بأنفسكنّ، أو بالأجيال المنشأة بجهودكنّ.

حيث اعتبركنَّ الإسلام شقائق الرجال حقيقة وواقعاً، لا زَيفاً وادعاءً.

وأسند إليكنَّ الدَّور المتناسب مع طبيعة الأنثى المجبولة بالحنان الدافق، والعاطفة الجيّاشة، والرّقة المحبَّبة، والحياء المجلبب لها بجلباب عزة النفس بلا غرور، والكرامة التي تحجزها عن الابتذال والميوعة والتحلّل.

وجعل لها من الحقوق الثابتة بحكم الله سبحانه، ما يؤهّلها للقيام بمسؤوليتها الكبرى المنوطة بها في هذه الحياة، لا يحق لأحد من كان، أباً أو زوجاً أو قريباً سلبها حقاً منها.

وكرّمها كتكريمه للرجل، بل فاقت بتكريمها تكريمه.

فجعل الجنّة تحت أقدام الأمّهات.

ورفع عنها الضَّيم والظلم بنتاً، حيث منع من الحزن لقدومها، وحرّم وَأْدها، ودفع إلى تعليمها وتأديبها ورعايتها، واعتبرها رحمة يثاب الإنسان عليها، في حين اعتبر الولد نعمة يحاسب الإنسان عليها. واعتبر رسول الله ﷺ البنات نِعْمَ الولد، ملطفات مؤنسات مباركات.

واعتبرها أماً، حالة كونها خالةً، من وجوب إكرامها كإكرام الأم، إذ إن الخالة أم كما ورد عنه ﷺ. وكذا العمة، والأخت.

وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): «من عالَ ابنتين أو أختين أو عمتين أو خالتين، حَجَبَتاه من النار»[1].

نعم، هذا هو موقعكنَّ في الإسلام، وهذا هو حقكنَّ المطلق ـ ضمن ما قررته أحكام الله ـ في تقرير مصيركنَّ في الحياة، بلا حاجة إلى تمرد أو قهر، أو صراع، ومن دون رفع شعارات خاوية، أو التذرع بحجج واهية، تعتمد الخداع والكذب والتضليل.

فهل للدعوات المغرضة، والكلمات المعسولة المدغدغة للغرائز، والمخدّرة للعقول، بعد هذا البلاغ من تأثير في نفوسكن وعقولكنَّ؟!

أملي كبير، في أن يكون لديكنَّ الوعي الكافي، والشخصية الثابتة القوية.

ذلك الوعي، الكفيل بجعلكنَّ مطّلعات متنبّهات باستمرار إلى ما يريده بكنّ ويحوكه لكنّ العدو الكافر، لتتحوّلن إلى أدوات يتلهّى بها ذئاب الأرض، الذين لا همّ لهم إلا إشباع غرائزهم، والاسترسال في حيوانيتهم، غير عابئين بالقيم الإنسانية والأخلاقية، والدينية.

---

(١) وسائل الشيعة، للحر العاملي، ج ١٥، ص ١٠٠، ح ٥.

وأنتنّ بوعيكنَّ هذا، تفوِّتنَ على هذا العدو الفرصة، وتجهضْنَ له ما خطط من غايات مدمّرة للحضارة الإنسانية المرتبطة بالسماء.

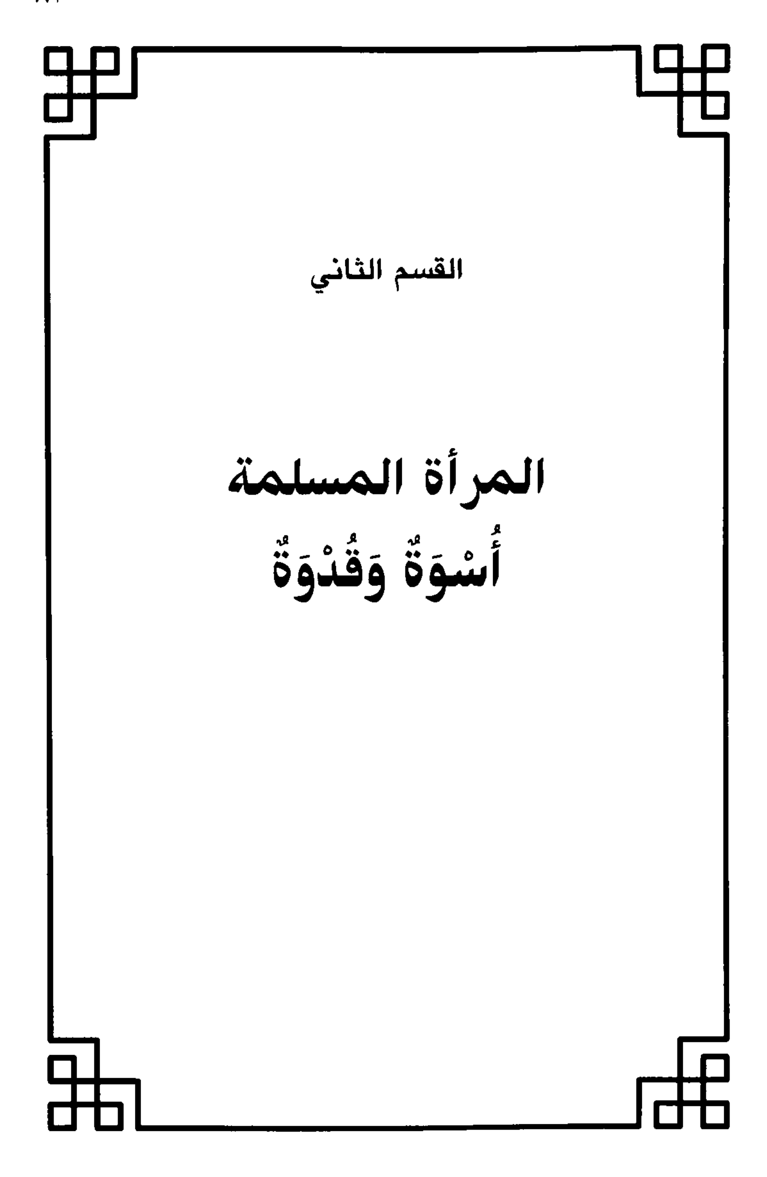
وبذلك، تكنَّ بحق، نصف المجتمع العابد في الأرض، المجتمع العابد، الذي أراده الله سبحانه فريداً في مواصفاته، متميزاً عما هو موجود من تجمعات وفق جاهليات اختارها الناس لأنفسهم بعد أن انصرفوا عما اختاره الله.

ألاَ هل بلّغتُ؟

أرجو من الله ذلك.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ . . .﴾[1].

(١) آل عمران/ ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.



القسم الثاني

المرأة المسلمة
أُسْوَةٌ وَقُدْوَةٌ

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد ما تقدم في القسم الأول، من عَرْض لموقف الإسلام من المرأة، نأتي هنا لعرض نموذج رائع للمرأة التي صنعها الإسلام لتكون الأسوة والقدوة. إنها فاطمة الزهراء.

وهذه الصفحات، ليست سيرة للزهراء أكْتُبُها، لا لِكون كتابة السيرة ليست في مقدوري، بل لتهيبي من الخوض في موضوع تشعّب واتّسع وامتدّ حتى طبع بطابعه المميز بشكل مباشر وغير مباشر، كل حنيّة من حنايا تاريخ هذه الأمّة، وترك بصماته واضحة جليّة على كل صفحة من صفحاته.

حتى ليقالُ بحق: إن سيرة فاطمة هي سيرة أمة في شخص...

وليس ذلك فقط، بل لأن الزهراء أيضاً، مثّلت الإسلام بصدق، حتى غدت إسلاماً حياً يسعى على قدمين. فكراً وسلوكاً.

بعد هذا، أليس من حقّي أن أتهيّب الدخول في موضوع حطم قيود الزمان وحدود المكان!؟

وإذا لم تكن هذه الصفحات سيرة الزهراء فماذا تراها تكون؟

إنها مجرد نتف من حياة فاطمة تنسّمت عبيرها، وتفيّأت ظلالها

لفترة من الزمن، فآنستني من وحشة وآمَنتْني من خوف يستشعره ـ في هذا العصر ـ كل مَنْ حمل مسؤولية السماء واتخذ من القيام بأعبائها طريقاً قلّ سالكوه.

ثم تلفّت حواليّ أفتّشُ بين نساء أمتي عن نسمة من تلك النسمات. أو ومضة من تلك الومضات علّ واحدة منهنّ على كثرتهن قد استهدت بهديها، أو أشرقت بنورها، فما وجدت. وهكذا عاد البصر حسيراً. واستشعرت الألم يعتصر قلبي. فحوّلت عصارته إلى مداد سطّرت به هذه الكلمات مترجماً ـ ما استطعت ـ بعض مواقف شجنة الرسول الأعظم ﷺ إلى دروس وعظات وعبر، علّها تلقي ضوءاً على بعض ما في حياة أخواتي وبناتي من جوانب نقص وتخلّف، إذا هن تمثّلنها سلوكاً وفكراً وحياةً. ومَنْ أحق من فاطمة أن تقدّم لنساء أمتنا علّهن يحتذينها.

فاطمة بنت محمد وزوج علي وأم الحسن والحسين.

وبعد، فأرجو أن أكون قد وفّقْتُ إلى سواء السبيل، سائلاً من الله القبول.

- ١ -

الابنة المطهّرة

تمهيد

عصرنا الذي نعيش فيه، عصر المذاهب والتيارات المتضاربة.

عصر الشعارات المرفوعة هنا وهناك.

الشعارات الأخّاذة بالعقول. البرّاقة أمام الأبصار والعيون. المتلاعبة بالأفكار، المتهاوية مسحوقةً تحت أقدام واضعيها ورافعيها على حد سواء، عند أول تجربة. المتلاشية هباءً عندما يحين وقت التطبيق على صعيد الواقع العملي.

في عصر كهذا، ما أحْوَجَنا إلى مثل يُحْتَذى؟

بل ما أَحْوَجَ الإنسان في كل عصر، إلى نموذج بشريّ فذّ، عاش ومات، فكان في حياته عظيماً. جسّد للبشرية في كل قول صدر عنه، أو موقف وقفه، ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من تطابق كامل بين فكره وسلوكه، بلا تذبذب ولا التواء.

وكان في موته عظيماً، وكأنَّ موته ذاك، كان بدايةً لحياة الإنسانية من خلال خلوده في أعماق أبنائها، ونفوذه في عقولهم وأفكارهم. يتمثّلونه في حركتهم وسكونهم. ويترجمونه سلوكاً نظيفاً، وتفكيراً صائباً، ويقيناً ثابتاً راسخاً. . .

ولعلّ إنساننا بشكل عام، ونساءنا في هذا العصر بشكل خاص هنَّ أحوج من رجالنا ـ مع الجزم بحاجتهم ـ إلى مثال كهذا، بعد أن فَقَدْنَ ـ أو كِدْنَ ـ شخصيَّتَهنَّ المتميزة، التي تؤهلهنَّ للقيام بأعباء ما ألقي على عواتقهنَّ في مجتمع الأرض من مسؤولية ابتدأت مع ابتداء الحياة، ولا تنتهي إلا بانتهائها.

ونساؤنا، من هنَّ؟

هنَّ في الحقيقة، بناتنا، وأُمهاتنا، وأخواتنا، وأزواجنا.

هنَّ البذر، وهنَّ الحرث، وهنَّ الحَصاد.

وعليهنَّ بالتالي، يتوقف خُبْثُ الثمرة أو طيبها، جَدْبُها أو خِصْبُها.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[1].

ومن هنا، كان حديثنا عن الزهراء عليها السلام.

وَمَنْ أحقُّ من الزهراء البتول، بين كل نساء الأرض أن تكون المثال، وتكون النموذج؟

مَنْ أحقُّ من فاطمة، أن تُقدَّم لنساء أمتنا علَّهنَّ يَحْتَذينَها؟

فاطمة، بنت محمد، وزوجة علي، وأم الحسن والحسين...؟

فاطمة، الثائرة في الحياة، وفي الموت...؟

فاطمة الهادئة هدوءاً يسبق العاصفة، حتى ليُخال الهمود، الهادرة انتفاضةً يتبعها التّغيير حتى الجذور.

---

(١) الأعراف/ ٥٨.

سليلة المجد

لقد وُلِدَت فاطمة عليها السلام بعد البعثة النبوية بخمس سنين، في نفس الوقت الذي كانت فيه قريش تبني الكعبة المشرفة.

وكأنَّ الله سبحانه أراد أن يكون مولدها مساوقاً لتجديد أوَّل بيت وُضِعَ للناس قبلةً ومحجاً.

ومن المعلوم تاريخياً، أن بيت النبوة الطاهر في هذه الأثناء، كان يضمّ بين جَنَباته المباركة، إلى جنب رسول الله ﷺ، سيدة أمهات المؤمنين وأوّلهن: خديجة بنت خويلد، مع كل ما كانت ترمز إليه من تضحية وعطاء، وعاطفة ونبل اتجاه الإيمان ورسول الإسلام، حتى قبل بعثته وإكرامه برسالة السماء إلى الأرض. فكانت الزهراء نتاجاً مباركاً لالتقاء أصلين:

أصل يضرب في بطنان التاريخ، عبر ظهور وظهور، تقلبت ساجدةً، ولله عابدة، حتى تُوِّجَ سجودها ذاك، بشموخ ارتفع بها نبوّةً تجسّدت في محمد بن عبد الله، فوصلها بالسماء.

وأصل تحدّر من أعرق أصلاب العرب، حتى استقر مجد العراقة في أسْمى صورها، في ابنة خويلد.

وهكذا أبصرت فاطمة النور، في كَنَف أب اتسع قلبه ليغمر برأفته ورحمته البشرية كلها، وتسامى بخلقه متمماً لكل مكارم من سبقه من أنبياء ورسل، فَنَعَتَهُ الله في كتابه الكريم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

---

(١) القلم/ ٤.

وأخبر هو عن نفسه فقال:

«إنما بُعِثْتُ لأتممَ مكارمَ الأخلاق»[١].

«أدّبني ربّي، فأحسن تأديبي»[٢].

وإلى جانب أم جُبلت على التفاني في سبيل مَنْ تحب، وما تعتقد.

في هكذا جو من التناغي الطاهر، والتناغم الهادئ، هدوء الإيمان، المستقر استقرار النفس المطمئنة الراضية المرضيّة.

وتحت سقف هكذا بيت غمرته إشراقة النور الإلهي، فحوّلته إلى قطعة فنية رائعة من الانسجام بين أجزائها، وتناسب بين الألوان. دَبّت فاطمة، وترعرعت الزهراء، يغمرها العطف ويجلْببُها الحنان.

عطف الأب وحنان الأم.

خُبُوّ شُعْلَة

ثم كانت ساعة، من يوم من أيام السنة الثانية عشرة للهجرة النبويّة الشريفة، أغمضت فيها خديجة بنت خويلد عينيها إغماضة الموت، تاركةً فاطمةَ ابنتها، تدقّ أبواب سنتها السابعَة من عمرها، إلى جنب أبيها رسول الله ﷺ.

دَرْسٌ في لحظة الموت

ولكنها رضوان الله عليها، لم تنسَ في لحظات نَزْعها الأخيرة، مسؤوليتها كأم...

---

(١) مجمع البيان، للطبرسي، ٩ و١٠، ص ٣٣٣.

(٢) المرجع السابق.

فقد حدّثت أسماء الأنصارية، «وكانت قد حضرت وفاة خديجة، فبكت خديجة عند وفاتها، فقالت لها أسماء: أتبكين وأنت سيدة نساء العالمين، وأنت زوجة النبي ومبشّرة على لسانه بالجنّة؟ فقالت: ما لهذا أبكي، ولكن المرأة ليلة زفافها لا بدّ لها من امرأة تفضي إليها بسرّها، وتستعين بها على حوائجها، وفاطمة حديثة عهد بصبا، وأخاف ألاّ يكون لها من يتولّى أمرها حينئذٍ».

ولا ينبغي لنا أن نمر بهذه الواقعة في اللحظات الأخيرة من حياة أم المؤمنين خديجة، مروراً عابراً، ونسجّلها ـ كما يعمد الكُتّاب ـ للتاريخ فقط.

بل لا بد لنا، من أن نُلْفت من خلالها كلَّ أمّ من أمهات المؤمنين في عصرنا، إلى ما استنبطته هذه الواقعة من شعور بالمسؤولية الملقاة على عاتق الأم تجاه ابنتها، لا في ناحية واحدة هي الإفضاء بالسر، والاستعانة على الحوائج، ولا في فترة زمنية معيّنة هي ليلة الزفاف ـ كما هو مصبُ الواقعة ـ ، إذ لسنا ملزَمين بتقييد أنفسنا ضمن هذه الحدود الضيّقة لفهم النصوص التاريخية وغيرها، بل شعور بالمسؤولية تجاه البنت في كل شيء.

سواء كان متصلاً بعالم الروح، من توجيه، وتربية، وتنشئة صالحة، وتثقيف ديني، وتصعيد خُلُقي.

أو بعالم الجسد، من رعاية للصحة، ومتطلبات النظافة، والأناقة وحسن المظهر.

أو بعالم البيت الزوجي، من تدريب، وإعداد ضروريين لإدارته على الشكل اللائق، ومع تلقينها المبادئ الصحيحة والمعقولة ـ في

حدود أحكام الله وأعراف الناس المقبولة ـ ، لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات الزوجية المتسامية، وما يحكمها بالنسبة لطرفَيها، من حقوق وواجبات.

وعلى هدي هذا الفهم للمسؤولية من خلال هذه الواقعة، نَدعو أمهاتنا في هذا العصر، بل في كل عصر، إلى أن تُجري كل واحدة منهنّ مع نفسها عملية نقدٍ ذاتيّ، لتكتشف مدى تقصيرها في هذا المجال، فيما يتعلق بمسؤوليتها كأم تجاه ابنتها أو بناتها، فتتدارك تقصيرها ذاك، حتى ولو كانت كخديجة، في لحظات نَزْعها الأخير.

دَرْسٌ في الإيجابية

ولعلَّ البعض يستغرب دعوتنا هذه لنساء أمتنا، الأمهات، لأن يتداركن تقصيرهن حتى في لحظات نزعهن حيث لا يرى فائدة لمثل هذا التدارك.

إذ ما فائدة أن تفعل الأم ـ خديجة كانت أو غير خديجة ـ مثل ذلك، مع أنها سوف تكون بعد فترة وجيزة جسداً هامداً جامداً، لا نفع يرتجى منه لمن بقي من الأحياء؟

والحقيقة، إن مثل هذا المستغرب، لا يأخذ في الاعتبار ما يمكن أن تحدثه كلمة إنسان عزيز مسجّى على فراش الموت، في نفس حبيب له وعقله من أثر، يعيش معه آخر لحظات الحياة، ويشعر أنه سوف يفارقه بعد قليل.

إن كلمة مثل هذا الإنسان، سوف تنطبع ولا شك في ذهن سامعه، وتنتقش على صفحة قلبه، كتذكار مُقدّس، قد يفعل فيه فعل السحر،

ويكون له تأثير الأعجوبة عليه، فيقلب حياته رأساً على عقب، وينقلب بالتالي إلى إنسان جديد بكل ما في الجدّة من معنى. وهذا واقع نحسّه ونعيشُه، حيث نكون أحرص ما نكون على تنفيذ وصية حبيب أفضى بها إلينا، أو عَهْد عزيز عَهِدَ به إلى عزيز.

أضف إلى ذلك، أنَّ الإسلام أراد من معتنقيه أن يتمثّلوا الإيجابية في سلوكهم قولاً وعملاً، حتى آخر لحظات الحياة، ويبتعدوا عن التميّع والسلبية اللامسؤولة، حتى في لحظات الموت والفناء، ليجسّدوا جوهر العطاء في وجودهم بدايةً ونهاية. وذلك ينطبق على مثل موقف خديجة أم المؤمنين، وأخوات خديجة من الأمهات.

وعلى ضوء هذه النقطة الأخيرة، نفهم قول رسول الله ﷺ فيما رويَ عنه: «إذا قامت الساعة، وبيد أحدكم فسيلةٌ فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها فليغرسها».

والفسيلة: هي شتلة النخل الصغيرة.

وإذا كان للمستغرب هناك أن يستغرب ما قلناه آنفاً، فينبغي أن يكون هنا فيما صدر عن النبي ﷺ أشد استغراباً.

فاللحظة ليست لحظة فناء شخص، بل هي الساعة، لحظة فناء الحياة بما فيها ومن فيها.

بل لحظة تبدّل الأرض غير الأرض والسموات، ومع ذلك نجده ﷺ، يُوجّه هذا الإنسان الذي يحمل نبتة ضئيلة بيده، إلى ألاّ يشغله قيام الساعة عن أن يُتمّ ما بدأه من عمل:

«فَلْيَغْرِسْها». . .

أما نحن الذين نفهم عنصر الإيجابية في هذا الدين العظيم، فلا نستغرب ولا نضطرب ولا نتبلبل، ولا ينبغي لنا إلا أن نطأطئ ونذعن، بإيجابية لا يحدّها زمان ولا مكان، ولا ينال منها خطبٌ أَلَمَّ، أو شدّةٌ نزلت.

بضعة النبي

وهكذا بقيت فاطمة وحيدة في بيت النبي ﷺ، فكانت بوحدتها تلك، محوراً لكل العطف الأبوي.

لقد كان لهذا العطف من قبل، محاور عدة تتوزعه، فيجد كل واحد منها المنبع الدفّاق المعطاء.

لقد كان هناك القاسم، وإبراهيم، وخديجة، وفاطمة، فتوفي الولدان، وتحوّل الحنان الأبوي والعطف إلى خديجة، والزهراء.

ثم تُوفِّيت خديجة، فكان من الطبيعي أن يَتَمَحْوَرَ كل هذا الحنان وذاك العطف حول الخَلَف الطيّب الذي يُذكّر قلب النبوّة الطاهر بالسَلَف الحبيب، حول البتول. فكان ذلك عزاءً لها وتعويضاً وسلواناً...

والشواهد كلها تشير إلى ما قلناه، سواء نظرنا إلى الصورة من طرف الأب العظيم، أو جانب البنت العظيمة.

نعم... الشواهد كلها تؤكد تمحور العطف الأبوي النبوي حول الزهراء...

ولا نجد أنفسنا بحاجة إلى إيراد الكثير حتى نُثبت ما حكيناه. بل يكفينا شاهد أو شاهدان فيهما غناء ورواء.

من ذلك ما ذكره المؤرّخون[١]، من أنّ النبي ﷺ: «كان إذا جاء من سَفَر، أتى المسجد، فصلّى فيه ركعتين، ثم ثنّى بفاطمة، وإذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة...»!!!

ومنها ما ذكره المؤرّخون أيضاً، من أنها عليها السلام «كانت إذا دخلت عليه، قام فقبّلها، ورحّب بها، وأخذ بيدها فأَجْلَسَها في محلّه».

وغني عن البيان قوله ﷺ:

«فاطمة قلبي وروحي التي بين جَنْبَيّ».

درس وتوجيه ومغزى

ومن الواضح، أننا لم نقصد من وراء عرضنا لما عرضناه من منزلة الزهراء عند أبيها رسول الله ﷺ، مجرد الإشارة إلى العلاقة العاطفية التي تربط أباً بابنته.

كيف، ونحن لم نقصد من خلال هذا البحث بمجمله، إلا أن نستكشف مواطن العظات والعبر، ونستخلص الدروس الحيّة الناطقة والمعبّرة، لتستفيد منها بنات الزهراء في هذا العصر، وأتباع محمد ﷺ.

فما هو الدرس ـ أو الدروس ـ التي يمكن أن نستشفّها يا ترى، من تصرّف رسول الله ﷺ مع ابنته البتول؟؟

مما لا شك فيه عندنا على الأقل، أن فعل النبي كقَوْله وتَقْريره، هو سُنَّةٌ متّبعة، على نحو الإلزام أو الاستحباب.

---

(١) راجع هذا وغيره في كتاب ذخائر العقبى...، لمحبّ الدين الطبري، ص ٣٧ وما بعدها. دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٤. ومستدرك الحاكم، ٣/ ١٥٤. وشرح المواهب للزرقاني، ٤/ ٣٣٥. والصواعق المحرقة لابن حجر، ص ١٨٦ ـ ١٨٨. وغيرها.

وإنه ﷺ، إنما كان يرمي من وراء ما كان يصدر عنه من أفعال ـ كالأقوال ـ إلى تعليمنا مبادئ الدين القويم وَقيَمه، إنْ في عالم الفكر، أو السلوك، فيما يتعلّق بالآخرة أو الأولى.

ومما لا شك فيه أيضاً، أن خصوصية المورد، لا تخصّص الوارد، كما هو ثابت في علم أصول الفقه.

من هنا، يمكننا الجزم، بأن علاقة النبي ﷺ مع ابنته الطاهرة، وتصرّفه نحوها، هو في حد ذاته، إرشاد لكل أب في الأرض يؤمن بمحمد، إلى أن يحذُوَ حذوَه في علاقته بأولاده ذكوراً وإناثاً.

علاقة، تقوم في جوهرها، على بناء الشخصية المتوازنة للطفل، بشكل تؤهله معها، لتحمُّل أعباء الحياة، كل بحسب دوره ومركزه في مجتمعه، عندما يدخل مُعْتركها.

ومن الواضح، أن معاملة الطفل، على أساس من الاحترام والتقدير، لها دخالة كبيرة في إنماء هذه الشخصية وإغنائها.

وعلى ضوء هذه الحقيقة، نستطيع أن نفهم مغزى تصرّف رسول الله ﷺ مع فاطمة عليها السلام، حيث كان ﷺ «إذا دخلت عليه، قام إليها فقبّلها، ورحّب بها، وأجلسها في محله».

ولكن هذا التصرف منه ﷺ تجاه فاطمة، لا يعكس في فهمنا مجرد ما قلناه، من احترام الأب لابنته الوحيدة وتقديره لها.

وإنما هو إضافة إلى ما ذكر، يضفي على الجو ظلالاً ذاتَ معانٍ أكبر وأعمق...

معانٍ تتصل بما كان النبي ﷺ يدركه من مركز هذه الأنثى في

الأمة حاضراً ومستقبلاً، وما سوف تكون عليه، من موقع قيادي بالنسبة لها.

وإلا فإن الاحترام والتقدير، قد يتأدّيان بمرتبة أدنى من تلك التي صدرت عن رسول الله ﷺ.

كان يمكن أن يتأدّى هذا التقدير، وذلك الاحترام، من دون قيام للقائها ـ على عظمته وهو نبي ـ ، كما كان يمكن أن يتأدّيا، بإجلاسها بالقرب منه، دون أن يجْلِسَها في محله...

بل كان يمكن أن يتأدّى الاحترام، ويتمَّ التقدير، بمجرد قوله ﷺ: «فاطمة قلبي وروحي التي بين جنبيّ».

ولكنه كان إشعاراً منه للأمة بما هي عليه من خصال عظيمة وكمالات كريمة تحاكي خصال أبيها ﷺ وكمالاته، وأنها شخصية رسالية صدّيقة ربّانية، وبما سوف تكونه في مستقبل الزمان القريب، من قيادة وريادة لفضح الباطل وتدعيم الحق.

وعلى أساس هذه النظرة، نفهم أيضاً، مغزى وقوف رسول الله ﷺ مائة وثمانين صباحاً على باب بيت فاطمة، بعد نزول آية التطهير[1]، ويتلو هذه الآية:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

---

(١) راجع، ذخائر العقبى، م. س.، ص ٢٤. وأورد رواية أخرى أنه ﷺ بقي تسعة أشهر يفعل ذلك، في نفس الصفحة وص ٢٥.

(٢) الأحزاب/ ٣٣.

وعلى أساس هذه لنظرة أيضاً نفهم مغزى قوله ﷺ[١]:

«إن الله يغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها، فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن أحبها فقد أحبني»...

ولكن في الشاهد الثاني الذي ذكرناه، درس لا يخفى على المتأمل، ولا تستعصي عليه استفادته منه.

هذا الشاهد الذي يحكي كيف أن النبي ﷺ «كان إذا جاء من سفر أتى المسجد، فصلّى فيه ركعتين، ثم ثنّى بفاطمة».

إن الدرس الذي يمكن أن نستفيده هنا، والذي أراد الرسول الأعظم أن يلقّننا إياه، هو أن أية علاقة مهما تعمّقت وتجذّرت، يجب ألا تعلو بحال على علاقة الإنسان بالله...

وإنّ علاقة العبودية لهذا المخلوق بخالقه، هي التي يجب أن تأتي في طليعة العلائق كلها...

علائق الأبوّة، والنبوّة، والزوجية، وما شاكلها...

هذا الدرس، الذي أشارت إليه آيات قرآنية في أكثر من موضع في كتاب الله، جسّده النبي ﷺ، سلوكاً عملياً متكرراً عند كل خروج مبارك له من طيبة، ورجوع محمود إليها، حيث كان يبتدئ كل ذلك بالوقوف بين يدي ربّه، من خلال ركعتين يؤدّيهما:

«أتى المسجد فصلّى فيه ركعتين».

---

(١) راجع ذخائر العقبى، م. س. ص ٣٧ وما بعدها.
والبضعة: القطعة. كما راجع أسد الغابة، ٥/ ٥٢٢. ومستدرك الحاكم، ٣/ ١٥٤. والصواعق المحرقة لابن حجر، ص ١٨٦ ـ ١٨٨. وغيرها كثير.

وبعدها، تأتي علاقة أبوّته لفاطمة وغير فاطمة من المؤمنين والمؤمنات، وغيرها من العلائق...

«ثم ثنّى بفاطمة».

وهنا نقف وقفة تأمل، لنحاول أن نفتش في واقعنا المعاش، ـ ونحن ندّعي الإيمان بمحمد ـ، عن قبسٍ من هذه الروح المحمديّة السامقة، فماذا نجد؟

نجد أن الجلّ لولا الكل منا، تأتي علاقته بربه وخالقه ـ إذا وجدت مثل هذه العلاقة ـ لا في المرتبة الثانية من اهتماماته، بل في مراتب متأخرة جداً، عن كثير من العلائق التي تربطه بعالم المادة والتراب. وتشدّه دائماً إلى الأرض، حائلة بينه وبين أن يحلّق في عوالم الأفق الأعلى....!.

الدّرسُ الأكبر

والدرس الأكبر، الذي يمكن أن نستقيه من كل ما تقدّم من سطور، هو أن نتعلّم من تصرّف المسلم الأول، مع ابنته الوحيدة، أن علاقة الأبوة والنبوّة في الإسلام، ليست مجرد علاقة عاطفية مائعة غائمة، كما هو الغالب في مجتمع الناس هذا الذي نعيش.

وإنما هي علاقة متجسّدة أجلى ما يكون التجسّد، في قالب عمليّ إيجابيّ فاعل وهادف.

ومشاركة وجدانية مدركة، أسمى ما يكون العمل، وأطهر ما يكون الوجدان.

علاقة، إذا ربطها بالأرض سبب، شدّتها إلى السماء أسباب...

هجرة فاطمة

ومرّ عام على هجرة خديجة أم المؤمنين إلى الدار الآخرة. أتمت الزهراء به عامها الثامن من عمرها الشريف، وشاء الله سبحانه، أن تكون للابنة الطاهرة، على رأس العام هذا هجرة إليه، مع مَنْ هاجروا بدينهم من دار الشرك إلى دار الإيمان، من مكة إلى المدينة...

مفهوم الهجرة بشكل عام

الهجرة في مفهومنا، ما هي إلاّ عمليّة تمرّد واعٍ على كل قيم الأرض الفاسدة، ومواضعات أهلها العابقة برائحة التراب، المتمرّغة في مستنقعات الرذيلة، والشذوذ، والانحراف...

الهجرة، احتجاج عملي متجسّد بالرفض لكل أشكال العبوديات المصنوعة بيد الإنسان لأخيه الإنسان.

الهجرة، صرخة الكائن العاقل، المدرك، المتحرر من قيود الجسد، وضغط ضرورات الحياة، في وجه الكائنات الأخرى، المكبّلة بتلك القيود، الرازحة تحت ضغط تلك الضرورات...

والهجرة، أخيراً لا آخراً، ثورة تغييرية كبرى، نابعة من أعماق الإنسان الحق. هادفة إلى خلق المجتمع العابد المتميّز، الذي أراده الله في الأرض، في نفس الوقت الذي تفعل فيه فِعْلَها الإيجابي، لزلزلة القواعد النَّخرة لمجتمع الكفر والفساد والطغيان...

ما نتعلمه من هجرة فاطمة

وإذا كانت الهجرة بمفهومها العام، ترمز ـ من وجهة نظرنا ـ إلى كل هذه المعاني العظيمة، والمسؤوليات الضخمة التي تتصل اتصالاً وثيقاً بعالم الحياة والأحياء العاقلة بلا استثناء، وتمتد بجذورها حتى

ترتبط بمفهوم خلافة الإنسان لله على الأرض. فما هو المغزى والمضمون، اللذان توحي إلينا بهما هجرة فاطمة بشكل خاص...؟

فاطمة، بنت الثماني سنين...

إن أعظم وأوضح معنى، توحي به إليها هجرة فاطمة الطفلة، بنت الثمان، هو أن هذه الهجرة لا ترتبط بسن خاصة، ولا هي مشروطة بمرحلة معينة من مراحل عمر هذا الإنسان...

وإنما هي مرتبطة بعالم الروح والضمير.

فكلما كانت الروح متألقة، منطلقة، متصلة بالله، وكلما كان الضمير حياً، يشعُ متألقاً بتوهج تلك الروح، وتوقّدها كلما وجدت الأرضية الصالحة لعملية الثورة الواعية، والتغيير الخيّر الصالح.

وهنا نتساءل: كم من بناتنا ونسائنا يملكْنَ مثل هذه الروح، وذلك الضمير...؟

وهنا أيضاً؟ تتمثّل أمام عينيّ، وقائع متكرّرة، وشواهد عديدة، كان فيها كثير من الآباء، وكثيرات من الأمهات يعتذرون عن سفور بناتهم وتهتكهنَّ، أو تميّع أبنائهم وضياعهم، بأنهن، أو بأنهم ما زلنَ، أو ما زالوا، صغيرات أو صغاراً...!!

وتذكرت بالخصوص، ذلك الأب الذي كنت جالساً في بيته مرة، واستحيَت ابنته أن تمر من أمامي لأنها سافرة، مع ادعائه الإيمان والتديّن للأسف، عندما قال لها: لا عليك يا ابنتي، فما زلتِ صغيرة... وأمّنت امرأته على ما قال مع أن الابنة كانت قد تجاوزت الخامسة عشرة من عمرها...

هذا الأب، وتلك الأم وأشباههما، هم العنصر الطاغي على مجتمعنا في هذا المجال...

وعلى ضوء هذه الحقيقة، يتضح الجواب على تساؤلنا السّابق، مدعماً بحقائق دامغة، تعلن عن نفسها في كل لحظة، على امتداد الرقعتين الجغرافية والبشرية لهذا المجتمع...

إن الأكثرية الساحقة منهنَّ، لا يتمتعن بشيء مما ذكرت من روح وضمير.

ولذا، فهنّ مدعوات إلى أن يتلقنَّ من هجرة فاطمة الزهراء درساً وقدوة.

هُنَّ مدعواتٍ إلى أن يحققن الهجرة في أعماقهن بما ترمز وما ترمي إليه.

هُنَّ مدعوات من خلال هذا الدرس، إلى أن يهجرْن في نفوسهن عوامل الانهزام، أمام ضغوط القيم الفاسدة في مجتمعهن.

وأن يتمرّدْن على مواضعات هذا المجتمع، التي تسلبهنّ العفّة والحياء والكرامة.

هنَّ مدعوات، إلى أن يهاجرن مما هنَّ فيه من عَرْي فاضح، إلى لباس التقوى، والزيّ الإلهي الذي فرضه الإسلام عليهنَّ، جلباباً يعمّق في داخلهن الشعور بالأنوثة الجاذبة بلا ابتذال. القادرة على فرض نفسها على الجنس الآخر، بأباءٍ، وأنفةٍ وكبرياء.

هنَّ مدعوات، من خلال هجرة فاطمة بنت الثماني سنين، بما تستبطنه من معانٍ سامقة، إلى أن يتجاوزنَ أصوات الضلال والإضلال،

المغلّفة بأعذار هي إلى حمأة الرذيلة والفحش، أقرب منها إلى المنطق السليم المسدّد بالنداءات الإلهية الموجّهة إليهنَّ، وما تفرضه القيم والأخلاق، عن أب صدرت هذه الأصوات الناشزة أو أم، من قريب أو من بعيد.

وعندئذٍ فقط، يمكن أن تكون كل واحدة من بنات أمتي، فاطمةً جديدة، صانعةً للأجيال العظيمة في هذه الأمة، التي أرادها الله شاهدة على بقية الأمم، بحكم وسطيّتها في كل شيء.

وبهذا أيضاً، تكون الخطوات التي مشتها الزهراء ما بين مكة والمدينة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، قد أينعت وأثمرت، متفتّقة عن زهرات عابقة بأريج، يترك أينما حملته النسمات عطراً يضجّ، متلمّساً طريقه إلى العقول، وتحتضنه القلوب، ويتحوّل بالتالي، إلى طاقة بنّاءةٍ معطاء للحياة والحضارة سواء.

فاطمة أمّ أبيها

كانت هذه علاقة الأب الرسول بابنته البتول.

علاقة لحمتها العقل.

وسداها العاطفة.

وخيوطها، إيجابية تستقي خطوطها من منبع الخير والعطاء، من خالق الآباء والأبناء، ومكوّن الأرض والسماء.

فماذا يا ترى، كانت علاقة البنت المباركة هذه، بذلك الأب العظيم؟

نُتَفٌ صغيرة من علاقة الزهراء بأبيها، تقودنا إلى الجواب الواضح، بما تحمله من مداليل كبيرة، وإيحاءات ضخمة.

فإذا تناولنا هذه العلاقة من زاوية الحب، والحنان، والعاطفة، نجد منها تياراً دفّاقاً، لا في صخب.

هادرً، لا في ضجيج.

مشبوباً، لا في تميّع أو ابتذال.

حتى أنها استحقّت أن يطلق عليها النبي الأعظم ﷺ، الكنية التي لم تُطلق ـ في حدود اطِّلاعي ـ على غيرها من بنات جنسها من قَبْلُ ومن بَعْدُ:

«فاطمة أُمُّ أبيها»(١).

وإذا تناولنا هذه العلاقة، من زاوية أخرى أوسع وأرحب، زاوية الرسالية المسؤولة المرتبطة بالسماء، فماذا نجد؟

قضية واحدة نوردها، كما أوردها المؤرخون، لنستخلص منها

---

(١) ورد ذلك في كثير من مؤلفات العلماء من أهل السنّة، منها: المعجم الكبير للطبراني، ٢٢/ ٣٩٧، مطبعة الأمة ببغداد. والبداية والنهاية لابن كثير، ٦/ ٣٦٥. والإصابة لابن حجر العسقلاني ٤/ ٣٧٧. وغيرهم كثير. وقد حاول بعض المُبْتَدِعين في الدين أن يفسّر هذه الكلمة من رسول الله ﷺ التي كنّى بها ابنته فاطمة عليها السلام بأنها إنما صدرت عنه ﷺ بدافع شعوره بالفراغ الذي أحدثه في حياته فقده لأمه فلجأ إلى إشباعه بوجود ابنته؟!!. وقد غفل هذا المبتدع عن أن لازم قوله هذا، نسبة عقدة نقص لرسول الإنسانية محمد ﷺ الذي اصطفاه الله واجتباه ليقود البشرية كلها نحو الحق والخير والكمال، فقضى عمره الشريف كلّه في الجهاد من أجل تبليغ رسالة ربّه حتى آخر رمق، كان حب الله سبحانه والعمل في سبيل تأدية ما حمله من أمانة يملأ كل لحظات حياته، فأنشأ خير أمة أُخرجَتْ للناس، وأرسى دعائم حضارة إنسانية ربّانية تحدّت كل الحضارات وأدالتها، ووسعت رأفته ورحمته وحرصه كل من آمن به واتّبعه حتى نوه به ربّه في كتابه المجيد فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة/ ١٢٨). فليس مقصوده ﷺ بهذه الكلمة التي كنّى بها ابنته إلا بيان حبه لها وحبها له، لا ما تخرّص به هذا المبتدع حسبما أدى إليه عقله القاصر ونظره الحاسر، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الدرس النافع، والعبرة المُجدِية في صحراء علاقاتنا المُجْدِبة.

فقد روَوا، أنه عندما نزلت الآية الكريمة من سورة النور، في سياق آيات تحدّد كيفية التعامل من حيث الشكل، بين القاعدة المتمثّلة بالمسلمين، والقيادة الممثلة برسول الله ﷺ:

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فقد ورد[2] عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في معنى هذه الآية: «لا تقولوا يا محمد، ولا يا أبا القاسم ـ وغير ذلك ـ لكن قولوا: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله».

وقد امتنعت فاطمة عن مخاطبة النبي ﷺ بقولها: «يا أَبَهْ»، ذلك النداء المحبّبُ إلى الأب العظيم، بقدر ما هو محبّب إلى قلب الابنة العظيمة.

درسان نافعان

وهذه الحادثة كما رُوِيَت، يمكن أن نستفيد منها بعد التأمل فيها، أمرين اثنين:

الأول: هذه الطاعة المطلقة لأمر الله سبحانه، من قِبَل امرأة هي في نفس الوقت ابنة نبي، حيث لم تقف تلك العاطفة العميقة في حنايا قلب فاطمة نحو أبيها، عقبةً في وجه تنفيذه بلا تردّد ولا إهمال...

---

(١) النور/ ٦٣. لِواذاً: أي يلوذ بعضهم ببعض، ويلجأ بعضهم إلى بعض.

(٢) راجع تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي، ١٥/ ١٧١.

وهذه الطاعة الفورية والصادقة لأمر الله. واعتبار إطاعة ذلك الأمر في الدرجة الأولى وفوق كل شيء.

وتقديمها على كل أمر مهما عزّ وعلا...

كم منا، نحن أتباع محمد؟

وكم من نسائنا وبناتنا يملكْنَ القدرة عليه؟

بل يملكْنَ ولو ذرة من التوجّه إلى تصوّره، فضلاً عن تطبيقه وترجمته واقعاً عملياً في الحياة...؟

لقد كانت تلك الاستجابة الواعية والفورية للنداء الإلهي، من طرف الزهراء عليها السلام، نتيجةً للتحذير الإلهي المجلجل في سورة التوبة:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١].

هذا التحذير وأشباهه في كتاب الله، كان يعيش دوماً في عقول المسلمين الأولين، ويرنّ في آذانهم، شأن كل آية نزلت وحكم شُرِّع.

ومن خلاله، كان سلوك المسلم، يتأطّر، وحوله يتمحْوَر.

وهنا يتضح لماذا، قد لا نملك ـ ذكوراً وإناثاً ـ القدرة على اتخاذ موقف فاطمة الآنف الذكر.

ذلك أننا فقدنا صلتنا بكتاب الله وشريعته. وبالتالي، لم تعد لأوامره ولا لنواهيه، أيةُ ردود فعل إيجابية في عقولنا وقلوبنا.

---

(١) التوبة/ ٢٤.

فهل ترانا نعي الدرس فنعود، ونرعوي عن ضلالنا فنفوز؟

الثاني: إن فاطمة، وهي ابنة أعظم إنسان عرفته البشرية في تاريخها الطويل. وهو ـ بلحاظ المنصب الإلهي الذي يتبوأ ـ أعظم مسؤول وأعلاه.

مسؤولية تتخطّى الزمان، وتتعدّى المكان.

فهو خاتم النبيّين، وسيد المرسلين.

وهو حاكم الأمة وزعيمها بلا استثناء. الرادّ عليه رادّ على الله.

إن فاطمة هذه، وبمجرد نزول الأمر الإلهي، اعتبرت أنها كغيرها من المسلمين والمسلمات، مخاطَبةٌ به، ولم يخطر في بالها ولو للحظة، أن بنوّتها للمشرّع، وعلاقتها النسبية به، تخولها أدنى حق يجعلها في منأى عن أن يشملها التشريع الواصل.

ولم تشعر للحظة، أنها في منزلة هي أرفع من منزلة غيرها من أتباع هذا الدين.

كيف وقد تربّت في مهبط الوحي، وأحضان النبوة، التي ما انفكت تردّد:

«يا فاطمة اعملي، فإني لن أُغْنِيَ عنك من الله شيئاً».

«لو أن فاطمة بنت محمد سَرَقَتْ لقطعتُ يَدَها».

هذا الدرس الذي استفدناه من سيرة الزهراء عليها السلام، هل نجد له في واقعنا الذي نعيشه عيناً أو أثراً.

اضرب بطرفك أنّى شئت، تجد أن غالبية أولئك الذين يتبوّأون

المراكز ويحتلّون المناصب، ثم يشرّعون تشريعاً يتعلق بمناصبهم، ويتناول الناس في ناحية معينة من نواحي حياتهم، قد يكونون أول من يخرج عليه، فضلاً عن أقربائهم وأنسبائهم، حيث يعتبر هؤلاء، أنَّ التشريع الذي وضعه قريبهم ذاك في مركز المسؤولية لا يعنيهم.

بل يعتبرون أن قرابتهم منه تعفيهم من تحمّل آثاره وتبعاته.

وبهذه الروح، انقلب المجتمع الحديث كالقديم، إلى تجمُّع فئوي متخلّف، طَغَت عليه المحسوبيات. واستشرت فيه ظواهر الرشوة والفساد والانحلال. ومزّقته الإحن والحزازات والأحقاد، فهل لنا أن نتخذ ـ نساءً ورجالاً ـ ، من موقف فاطمة السامي هذا، حبلاً يعصمنا التمسك به عن الانزلاق في الهوّة الفاغرة فاها، لتبتلع ما يكون قد تبقّى عند بعضنا من حرص على القيم، وحدبٍ على المصلحة العامة. . .!؟؟

- ٢ -

الابنة المعصومة

فاطمة، بنت رسول الله محمد ﷺ.

خُلِقَت طاهرة معصومة عن الذنوب من قِبَل الله تعالى.

وعصمتها ثابتة بالنقل، في القرآن الكريم، والسنّة المطهّرة.

والقول بعصمتها، ضروري من ضروريات مذهب أهل البيت عليهم السلام، بإجماع علمائنا قديماً وحديثاً[١].

فمن القرآن، يكفي أن نستدل بآية التطهير، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

---

(١) وإن ابتُلي المذهب الجعفري في السنوات الأخيرة ببعض من شذّ عن هذا الإجماع فراح يَنْعَبُ وحده ويفسد عقائد العوام من الناس ويحسب أنه يحسن صنعاً، حيث يجاهر بالقول بعدم عصمة الزهراء عليها السلام وإنها ليست في طبيعتها أي أمر غيبي، وشخصيتها كشخصية بقية النساء الفاضلات مثل أمها خديجة وابنتها زينب... ثم بعد أن بهتته النصوص وأفحمته أدلة العلماء، جاء بمنكر من القول فذهب إلى أن عصمة الزهراء كانت وليدة البيئة الإيمانية التي عاشت فيها، غافلاً عن اللوازم الفاسدة لهذه المقالة، وهي أنها عليها السلام لو وجدت في بيئة غير هذه البيئة لانطبعت شخصيتها بمواضعاتها الفاسدة وقيمها المنحرفة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هل له أن يفسّر لنا كيف لم تستطع أية امرأة من نساء النبي ممن عشنَ في نفس البيئة أن تصل إلى نقطة في بحر عظمة الزهراء عليها السلام إيماناً ويقيناً وعلماً وعظمةً وجهاداً في سبيل الله؟!!

(٢) الأحزاب/ ٣٣.

وقد أجمع المفسّرون، وروى الجمهور من أهل السنّة[١] على أنها نزلت في أهل الكساء[٢]، وهم: النبي ﷺ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام.

كما روي[٣] ذلك عن أئمة أهل البيت عليهم السلام. وعن التابعين بطرق تربو على الحصر. وأجمع خصوص علماء الإمامية الاثني عشرية، على شمول الآية لبقية الأئمة من أهل البيت، من الإمام الرابع علي بن الحسين، إلى الإمام الحجة المهدي (عج)، لدلالة روايات صحيحة عندهم عن النبي ﷺ على ذلك.

«وتقريب الاستدلال بالآية الكريمة على عصمة أهل البيت (ومنهم فاطمة عليها السلام) ما ورد فيها من حصر إرادة إذهاب الرجس ـ أي الذنوب ـ عنهم بكلمة (إنما) وهي من أقوى أدوات الحَصْر. واستحالة تخلّف المراد عن الإرادة بالنسبة إليه تعالى، من البديهيات لمن آمن بالله عزّ وجلّ، وقرأ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤]... وليس معنى العصمة، إلا استحالة صدور المعصية عن

(١) راجع كتاب نهج الحق، للعلاّمة الحلّي، ص ١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢) حديث الكساء، حديث متواتر بين السنّة والشيعة، تصل طرق روايته عند أهل السنة إلى ما يفوق الأربعين طريقاً، وهي كذلك عند الشيعة. فيكون مجموع طرقه عند الفريقين أكثر من ثمانين طريقاً. فراجع منهاج السنة لابن تيمية، ٣/ ٤ و٤/ ٢٠. وصحيح مسلم، ٧/ ١٣٠. ومسند أحمد، ١/ ٣٣١ و٣/ ٢٥٩ ـ ٢٨٥ و٤/ ١٠٧ و٦/ ٢٩٢ ـ ٢٩٨ ـ ٣٠٤. وذخائر العقبى لمحب الدين الطبري ٢١ ـ ٢٥. وغيرها.

(٣) راجع كل ذلك في كتاب «آية التطهير في أحاديث الفريقين» للسيد علي الموحّد الأبطحي. ومع كل ما تواتر من حديث الكساء عند العلماء من الفريقين على اختلاف مذاهبهم، والتواتر طريق قطعي لإثبات السنة إجماعاً، يطلع علينا البعض المشار إليه في الهامش السابق مشككاً فيه بأسلوب يضحك الثكلى ويضهج الحبلى ويثلج صدور المنافقين؟!!

(٤) يس/ ٨٢.

صاحبها. . .»[١] من غير إجبار له على ذلك.

وأما من السنّة المطهّرة، فإضافة إلى ما تواتر عن رسول الله ﷺ من أقوال في حق ابنته فاطمة عليها السلام، كقوله ﷺ: من آذاها فقد آذاني.

إنّما ابنتي بضعة مني، يريبني ما رابَها ويؤذيني ما آذاها. يا فاطمة، إن الله عزَّ وجلّ، يغضب لغضبكِ، ويرضى لرضاكِ.

وغير ذلك، فإنها تدل على عصمتها من الذنوب. حيث كان إغضابها وأذيتها يوجبان غضبه وأذيته ﷺ، بل غضب الله سبحانه.

وإغضابها، يتم، فيما لو صدر عنها أمر بشيء أو نهي عن شيء، فترك إنسان فعل المأمور به، أو ارتكب المنهيَّ عنه، فتغضب وتتأذى في كلتا الحالتين، وتكون أذيتها بمقتضى هذه النصوص أذيته ﷺ، بل يكون إغضابها سبباً لغضب الله تعالى.

ومن الواضح، أنها لو أمرت بمعصية ـ والعياذ بالله ـ ، أو نهت عما هو طاعة له سبحانه ـ والعياذ بالله ـ فإنه لا تجوز موافقتها فيهما، حتى لو سبّب ذلك أذيتها، إذ هل يعقل أن يتأذى رسول الله ﷺ في هذه الحالة، مع أنه ﷺ قال: يؤذيني ما آذاها على نحو العموم، ولازمه أنها لا يمكن أن تنحو في قول أو إلى فعل غير جانب الحق.

ولا يمكن أن يصدر عنها ما هو معصية أو ذنب في حال من الأحوال، وهو معنى العصمة.

---

(١) الأصول العامة للفقه المقارن، السيد محمد تقي الحكيم، ص ١٤٣. الطبعة الرابعة، المؤسسة الدولية، بيروت، ٢٠٠١.

وبنحو آخر: إنها إذا كانت عليها السلام غير معصومة، وأنها يمكن أن تقارف المعصية ـ والعياذ بالله ـ «لجاز إيذاؤها»، بل لوجب إقامة الحد والتعزير عليها لو فعلت. ولم يكن رضاها رضا الله إذا رضيت بالمعصية ولا مَن سرّها في معصية سارّاً لله سبحانه. ومَن أغضبها لمنعها عن معصية مغضباً لله تعالى.

وكل ذلك، يناقض عموم الأخبار السالفة[١].

أقول: إضافة إلى هذا، في الدلالة على عصمة بضعة النبي صلى الله عليه وآله، نكتفي من السنّة الشريفة برواية صحيحة عن المعصوم[٢] عليه السلام قال: «إن فاطمة، صدّيقة شهيدة».

«والصدّيقة، فعّيلة للمبالغة في الصدق والتصديق، أي كانت كثيرة التصديق لما جاء به أبوها صلى الله عليه وآله وكانت صادقة في جميع أقوالها، مصدّقة أقوالها بأفعالها، وهو معنى العصمة»[٣]. وقد نعت الله سبحانه بالصدّيق كثيراً من الأنبياء في القرآن. كما أن النبي صلى الله عليه وآله نعت بها من بين كل الصحابة علياً عليه السلام وحده[٤].

ولم ينعت أنثى في القرآن بالصدّيقة إلا مريم ابنة عمران عليها السلام[٥]. وفاطمة عليها السلام أفضل منها وذلك لأنها بنص النبي صلى الله عليه وآله[٦]: سيدة نساء العالمين، بينما مريم سيدة نساء عالمها. وأنها سيدة نساء أهل الجنة

---

(١) مرآة العقول، للعلاّمة المجلسي، ٥/ ٣١٥ وما بعدها.
(٢) راجع أصول الكافي، لثقة الإسلام الكُلَيني، باب مولد الزهراء فاطمة عليها السلام، ١/ ٥٣٠، ح ٢.
(٣) مرآة العقول، م. س. ص ٣١٥.
(٤) المائدة/ ٧٥.
(٥) مجمع الزوائد، للهيثمي، ٩/ ١٠٢. والمناقب للخوارزمي الحنفي ص ٣٢.
(٦) راجع ذخائر العقبى للطبري/ ٣١ وما بعدها.

ومريم واحدة من نسائها. وأنها سيدة نساء المؤمنين. وما ورد في حديث: سيدة نساء أهل الجنة من زيادة: (إلاّ مريم)، يقول العسقلاني في فتح الباري بأنها لا توجد في أصل الحديث في صحيح البخاري. وإن الله زوّجها، وزفّتها الملائكة في السماء قبل أهل الأرض لعليّ عليه السلام[١]. وإنها حدّثت أمها خديجة وهي في رحمها[٢].

وإذا كانت مريم قد اصطفيت لولادة عيسى عليه السلام فإن فاطمة اصطفيت ليكون من ذريتها المهدي الذي يصلي بعيسى إماماً عند خروجه، وهي ابنة أشرف النبيين، فهو أفضل من عمران على القول بأنّه نبي.

---

(١) راجع ذخائر العقبى للطبري/ ٣١ وما بعدها.
(٢) البحار، للمجلسي، ٤٣/ ٢.

- ٣ -
فاطمة الزوجة

تمهيد

هذه الصورة المتألقة المشرقة في سماء البشرية، صنعت ألوانَها، ورسمت ظلالَها، وحبكت أجزاءَها، الزهراءُ البنت، فجاءت لوحة رائعة، فيها من الإعجاز الإلهيّ، بقدر ما فيها من الحكمة الإلهية.

ولكن الحكمة الإلهية تلك، التي تدخّلت في صنع شخصية الزهراء البنت، ماذا كان عليه حالها في صنع شخصية الزهراء الزوجة. . .؟

وذلك الإعجاز الإلهي، الذي تبدّى في أولى مراحل حياة فاطمة بهذا الشكل، كيف تُرى قد تبدّى في ثاني مراحل حياتها. . .؟

وتلك الدروس والعِبَر، التي تعلّمناها من بضعة رسول الله ﷺ عندما كانت في كنفه، هل يمكن أن نستفيد مثلها، ونتعلم غيرها من هذه البضعة الطيّبة، بعدما انتقلت إلى كنف زوجها عليّ. . .؟

خاطبون... ولكن

وقد تواترت كلمات المؤرّخين[١]، بأن كثيراً من الرجال قبل

(١) راجع ذخائر العقبى، لمحب الدين الطبري، ص ٢٧ وما بعدها.

علي ﷺ، قد تقدّموا لخطبة الزهراء، من أبيها رسول الله ﷺ، وكان عدم قبولها بأي واحد منهم، يظهر على قسمات وجهها عندما كان النبي يكلمها في ذلك!

ولا بأس بأن نعرف بأن هؤلاء الخاطبين، كانوا من عليّة القوم، ومن شيوخ قريش وزعمائها.

يكفي أن نذكر أن الشيخين أبا بكر وعمر كانا من جملتهم، فكان نصيبهما من الزهراء وأبيها ﷺ الإعراض، والرفض والصدود.

إلى أن كانت السنة الثانية للهجرة النبويّة المباركة، حيث كانت فاطمة قد أتمّت ـ بناءً على الرواية التي اعتمدناها سابقاً ـ العاشرة من عمرها الشريف.

لقد حملت هذه السنة في تباشيرها، خبراً قد يكون مفاجأة للزهراء ﷺ، إلا أنه لم يفاجئ رسول الله ﷺ.

لقد جاء علي يخطب فاطمة. . .

مهر فاطمة

ولكن، ماذا كان مهر فاطمة؟

لكي ندرك مقدار مهر فاطمة، لا بد لنا من أن نتساءل: وماذا كان عليه حال علي ﷺ من الناحية المادية؟

هذه كانت ثروة علي!!!

ولم يكن في جيبه دينار ولا درهم، عندما خطا خطواته، نحو البيت النبوي الكريم.

لقد مشى ابن أبي طالب، إلى بيت أخيه وابن عمّه رسول الله ﷺ يطلب يد ابنته زوجةً له، وهو لا يملك من حطام الدنيا صفراء ولا بيضاء. ولكنه كان يملك إيماناً عميقاً بأن فاطمة له دون غيره.

وأن فقره ـ في مقاييس أهل الأرض ـ لن يقف حائلاً بينه وبين ما يريد.

ذلك الإيمان الراسخ وليدُ فهمه لطبيعة الإسلام العظيم، والرُّوح التي تنطوي عليها حنايا نبي الإسلام.

تلك الروح، التي لم تكن لتعبأ بقيَمِ الأرض ومواضعات أهلها، بل كانت أبداً تنظر إلى محتوى الإنسان، وما يمثله من قيم السماء، ويجسّده من كلمات الله حياةً وسلوكاً.

يؤكد ذلك كله، رفضه ﷺ تزويجها من زعماء قريش، مع ما يمثلونه من ثراء وجاه وملاء.

ويؤكده ـ ما رواه ابن بطة في الإبانة ـ عندما جاء عبد الرحمن[١] إلى النبي خاطباً فلم يجبه، فظن هذا أنه يستطيع أن يؤثر على رسول الله ﷺ بماله فقال له: بكذا من المهر ـ فغضب ﷺ، ومدّ يده إلى حصى فرفها، فسبّحت في يده، وجعلها في كمّه فصارت درّاً ومرجاناً.

وكان هذا أبلغ جواب لما عرضه عبد الرحمن من مهر لفاطمة.

ولذا، عندما وقف علي بين يدي رسول الله ﷺ يعرض حاجته قائلاً:

---

(١) الظاهر أنه ابن عَوْف.

«سمعتك يا رسول الله تقول: كل سبب ونسب منقطع إلا سببي ونسبي».

فقال له النبي ﷺ: «أمّا السبب فقد سبَّب الله، وأما النسب فقد قرَّب الله».

وهشَّ في وجهه وبش، ثم قال:

«أَلَكَ شيءٌ أُزوّجك منها به».

فقال: «لا يخفى عليك حالي، إن لي فرساً وسيفاً ودرعاً».

فقال ﷺ:

«بع الدرع».

درسان في الموقف

بهذه العفوية الواعية،

وبهذه الإيجابية الهادفة، لقّننا رسول الله الدرس الذي نسيناه.

ومَحَضَنا العظة التي أضعناها نحن أتباعه من بعده.

حتى أننا ليأخذنا الخجل، ويكسفنا الحياء من أن ندّعي الانتساب إليه.

بثمن درع حطمية[1] زوّج خاتم النبيين سيدة نساء العالمين.

فما بال المهور في مجتمعنا، قد غدت من الثقل والضخامة،

---

(١) الحطمية: «قال شمر في تفسيرها هي العريضة الثقيلة. وقال بعضهم: هي التي تكسر السيوف. ويقال: هي منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم: حطمة بن محارب كانوا يعملون الدروع. ذكر ذلك محب الدين الخطيب في ذخائر العقبى، ص ٢٧.

بحيث أصبحت تعكس عملية الزواج وكأنها صفقة تجارية تتم بين متبايعين، كما يحصل عيناً في تجارة السلع المادية في الأسواق...؟

وبهذا أصبحت المهور عقبات حقيقية في وجه راغبي الزواج لا يستطيعون تخطّيها.

بل أصبح هناك ارتباط في أذهان الناس ـ بسبب جشعهم وانحرافاتهم وأوهامهم ـ ، بين كثرة المهر، وقيمة الزوجة وبالعكس؟!!

وبهذا تعرقلت عمليات إقبال الشباب على الزواج.

مما نتج عنه بشكل مباشر، إقبال على الفجور والزنا والانحرافات الخلقية والجنسية.

لقد أراد النبي ﷺ بتزويجه فاطمة على أربعمائة مثقال من فضة، أن يسنّ سنّةً لأمّته، تكون وقاية لها في المستقبل مما صارت إليه من منزلقات مخيفة.

فهل آن لنا أن نستجيب لسنّة نبينا؟

فنريد ما أراد الله؟

ونسحق ما سوّلت لنا أنفسنا من أباطيل؟

ونحطّم ما نسجته أوهامنا من تصورات جاهلية، منحرفة، ما أنزل الله بها من سلطان.

هذا هو الدرس الأول، الذي يمكن أن نستفيده من موقف رسول الله ﷺ الآنف الذكر.

وأما الدرس الثاني في هذا الموقف النبوي، فيمكن أن نستفيده من اختيار بيع الدرع ليكون ثمنه مهر فاطمة دون سواه.

لقد عرض علي عليه السلام ثلاثة أشياء كان يملكها، الفرس، والسيف، والدرع، فلمَ اختار النبي الدرع واستبقى لعلي الفرس والسيف؟

في حين أن ثمن الفرس، قد يكون أغلى، وكذا ثمن السيف ذي الفقار؟

بل لماذا لم يأمر رسول الله علياً في أن يبيع الثلاثة صفقةً واحدة، أو صفقات، ليكثر المهر ويعظم الصداق؟

إن موقف النبي صلى الله عليه وآله هذا، نابع في فهمي من نظرة بعيدة عن الهوى، منزّهة عن الغرض الشخصي.

بل هو نابع من حرصه على مصلحة الإسلام العليا، من خلال حرصه على فرس علي وسيف علي.

إنه لمن الواضح، ـ والإسلام كان يعيش مع أعدائه فترة حاسمة من الكرّ والفرّ والصدام المسلح ـ ، أنَّ الإبقاء لعلي على فرسه، ليكون دائماً في قتاله فارساً، وعلى سيفه، لاستحالة أن يقاتل الإنسان عادة من دون سلاح، هو عين الحكمة النابعة مما تقتضيه مصلحة الأمة المتمثلة في علي، وتقديمها على أي اعتبار آخر، حتى ولو كان ذلك الاعتبار من أوضح مقتضيات مصالحنا الفردية، وأغراضنا الخاصة.

وفي هذا ما فيه، من تعويد لنا على التعالي على الذات ونكرانها، حتى في تلك اللحظات، التي يكون فيها زمام الاختيار بيدنا.

ونكون في مراكز قوة عند إعمالنا لذلك الاختيار.

جهاز العروس

هكذا تمت خطبة عليّ لفاطمة.

وبيعَ الدرع، وابتدأت عملية تجهيز بيت الزوجة المبارك.

ولكن، كيف تمّ تجهيز البيت وممّ كان يتألف ذلك الجهاز؟

رواية وردت عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام تبيّن ذلك كله جاء فيها:

«وسكب علي الدراهم في حجره، فأعطى منها قبضةً إلى أم أيمن لمتاع البيت، وقبضةً إلى أسماء بنت عميس للطِّيب، وقبضةً إلى أم سلمة للطعام، وأنفذ عماراً وبلالاً لابتياع ما يصلحها، وكان مما اشترياه:

قميص بسبعة دراهم.

وخمار بأربعة دراهم.

وقطيفة سوداء، وسرير.

وفراشان من خيش مصر، حشو أحدهما ليف، وحشو الآخر من جز الغنم.

وستر من صوف.

وحصير.

ورحى يد.

ووعاء لغسل الثياب.

وقدح للَّبن.

وجرّة.

وكيزان من خزف، وقربة ماء».

درس وتذكير

كان هذا جهاز بيت فاطمة الزوجي.

وجهاز فاطمة العروس.

لم يكن فيه كما ترى، غير التواضع والواقعية والمواساة.

تواضع لا ذلّة فيه.

بل تواضع في شموخ يفضح التعالي الكاذب ويُدينه، وواقعية، لا تعبأ بالتطاول الأجوف والخيال المشين، ومواساة لكل بنات جنس فاطمة، لم يمنع عنها كرم محتد، ولا عراقة أصل.

لقد كان جهاز عرس فاطمة، كأي جهاز عرس لأية أنثى في مجتمعها، إن لم يكن أقل، مع أنها ابنة نبيّ، وابنة أعرق بيت في قريش، سيدة قبائل العرب.

ونحن اليوم، عندما ننظر إلى واقعنا الذي نعيشه في هذه النقطة بالذات، نقطة التأثيث والتجهيز فماذا نجد؟

نجد الإغراق في المظهريات، التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على ما وصلنا إليه من ضحالة في التفكير، وبُعدٍ عن الحقيقة، وإمعان في التعالي الزائف، والوهم الكاذب الخدّاع.

حتى أَضَعْنا كل المقاييس، وتعدّينا كل الحدود، وحطّمنا كل الضوابط والقيود، فوقعنا في أسر عادات وأعراف وتقاليد، كلها عبوديات، لا تخدم الإنسان في شيء، بل تجرّ عليه الويلات، وتدفعه إلى دواهي المصيبات.

لقد أغرقنا في الزيف، يساعد على ذلك منطق العصر المادي، من خلال أسطوانة البيع بالتقسيط.

فترى الواحد منّا، والواحدة، يُقدم على تكديس الأثاث اللازم وغير اللازم، مما يُعتبر من الكماليات.

وربما كان هذا القسم الأخير هو الطاغي. دون أن نحسب حساباً لمدى قدرتنا على الدفع عند الاستحقاق، ولا عابئين بمستوى الدّخل عندنا.

بل كل همّنا ينصبّ على المضاهاة والمباهاة للآخرين، تؤازرنا وتشجعنا زوجة المستقبل، بنفس العقلية البدائية، والتفكير السطحي، والمنطق الأبله.

ولا نشعر بخطورة ما تجني أيدينا، إلا عندما نتهاوى تحت طائلة الفوائد الربويّة المتراكمة، والأقساط المستحقة، حيث يصار إلى الحجز على كل ما اعتقدنا أننا قد ملكناه في لحظة وَهْم، وفورة اندفاع أعمى. . . !

من أجل ذلك كلّه، وللذكرى والاعتبار، علّ الذكرى تنفعنا، لنعدِ النظر، ولنُرجِع البصر كرّتين، في جهاز بيت الزهراء البتول.

فهل ترانا نجد فيه، ما ينبغي أن تكون بناتنا عليه، من تواضع، وواقعية، في حدود ما هو ضروري، لبناء عشّ الزوجية الذي يحمل بين جدرانه ومحتوياته، بذور الاستقرار، والسعادة، والطمأنينة، بعيداً عن الزيف والتعقيد. . . ؟

مراسيم الزواج

لعل كثيرات من نسائنا، عندما يقرأن هذا العنوان، سوف يتلهّفن لقراءة محتواه.

ليطّلعن على المراسيم التي تمّ في إطارها زواج ابنة رسول الله ﷺ.

ولعل كثيرات منهن أيضاً ـ انطلاقاً من ضغط الأعراف الجاهلية السائدة في مجتمعنا، والتي تفعل فعلها في نفوسهن ـ سوف يرسمن في أذهانهن صورة لحفل الزواج هذا، بما تخلّله من ألوان البذخ، ومظاهر الترف، وصور الترفيه والزينات، وما سبقه من مقدمات التهيئة والإعداد.

ولكنهن عندما يطّلعن على مراسيم زواج الزهراء، قد يُصَبْنَ بصدمة، وبخيبة أمل.

ذلك أن كل ما رسمنه في أذهانهن، من خطوط وألوان، لن يجدْن منه شيئاً.

بل سوف يجدْن البساطة المتناهية، ولكن، بوقار جلّلتها به السماء.

وبراءة فطرية، رسمتها كلمات الله، ضمن إطار إنسانية الإسلام في مفاهيمه الواضحة، البعيدة عن الشكليات والتعقيدات.

يكفينا هنا، أن نورد ما رواه المؤرخون في كيفية زواج الزهراء عليها السلام، حيث أعلن النبي ﷺ من على منبره، أمام المسلمين ذلك، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«ثم إن الله تعالى، قد أمرني أن أزوّج فاطمة من علي، وقد زوّجتها إياه على أربعمائة مثقال فضّة، إن رضيتَ يا علي...»؟

قال: «رضيت يا رسول الله...».

وبعدها، مكث علي تسع وعشرين ليلة، ثم سأل النبي ﷺ، بواسطة أم سلمة، أن يدخل عليه أهله، فدعاه النبي، وقال: حباً وكرامة.

وبعد وليمة أقيمت لأهل المدينة من رجال ونساء، دعا ﷺ فاطمة، وأخذ بيدها فوضعها في يد علي وقال:

«بارك الله لك في ابنة رسول الله يا علي، نِعْمَ الزَّوج فاطمة، ويا فاطمة نِعْمَ البعلُ عليّ...».

إلى أين؟

بهذه الصراحة المفعمة بالطهر، طلب علي زفّ زوجه إليه.

وبهذه العفوية المفعمة بالخلق والصدق، استجاب له رسول الله ﷺ، فيما استماله ورغب فيه، لأنه طلب صاحب الحق لحقّه، ومن أَوْلَى مِنَ النبي الأعظم بأداء الحقوق لأصحابها.

وهكذا، بلا عجيج ولا ضجيج، وبلا تعقيدات ولا شكليات، تمّ انتقال الزهراء إلى بيت زوجها أبي تراب.

يواكبها ركب، ليس للأرض ولا لنزعات أهلها فيه نصيب، بقدر ما للسماء وأهل السماء[1].

ونحن في هذا العصر، وفي مجتمعنا هذا بالذات، عندما ننظر إلى جلّ أعراسنا، وما يجري فيها، وما يُهيّأ لها من مقدمات، ماذا نجد...؟

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في ذخائر العقبى، م. س. ص ٢٨ ـ ٢٩.

نجدها على العكس تماماً.

احتفالات ليس للسماء فيها نصيب.

بل لا تعدو أن تكون مناسبات، على تكثّرها وتكرّرها، استطاع الشيطان أن يحوّلها مناخات خصبة يمارس من خلالها غواياته.

وشباكاً مُحْكَمة الحلقات، يصطاد بها أكبر عدد ممكن ممن يستحوذ عليهم من ذرية آدم.

وأسواقاً رائجة لسلع الإثم والإغراء، وآلات اللهو والمجون والباطل.

بل معارضَ للأجساد العارية، وفنون الإثارة والتبرّج.

اضرب بطرفك كيف شئت، وأنّى شئت، فلن تجد أدنى ربط بين ما كان وما هو كائن.

فتش عن الطهر، فلن تجد ـ غالباً ـ غير الفحش.

وعن العفّة، فلن تجد غالباً غير التهتك.

وعن الحياء، فلن تجد غالباً غير القحة.

وعن الصدق، فلن تجد غير الدجل والنفاق.

كل ذلك تحت ستار من الزيف، اصطلح عليه بكلمة ظُلمت هي: «الاجتماعيات».

ومن الواضح، أننا باسم هذه الكلمة، نطعن المجتمع، ونسحق الإنسان.

وإلاّ، فما معنى هذا الذي يحصل في أعراسنا...؟

ما معنى هذا الإسراف الفاحش، وعلى ماذا؟

على أمورٍ، لا تخدم المجتمع الإنساني في قليل ولا كثير.

على خمور، تدمّر العقول، وتداس من جرّاء تعاطيها الكرامة البشرية.

وأزياء، لا تعدو أن تصبح بعد ساعات أو أسابيع في سلال المهملات.

وموائد عامرة بأنواع لأطعمة، تتحول بعد سويعات إلى مجاري القاذورات.

وقبل هذا كله وبعده، طبول، ومزامير، وآلات، يصاحبها ضجيج يثير الأعصاب، ويعكّر الصفو والهدوء والاستقرار. وتمايل أجساد تحرّكها الغرائز الهابطة، وتحرّك في الذكر والأنثى شبق الحيوانية، وفورة الشهوة والجنس.

كل ذلك يحصل على مرأى ومسمع، من أناس يعضّهم الجوع، وينهشهم الفقر، وتذلّهم الفاقة.

أناس، قد لا يجدون سقفاً يؤويهم، أو ثمن دواء، وبالكاد، يجدون أسمالاً تستر بعضاً من أجسادهم المنهوكة.

وقد يكونون ممن فقدوا حبيباً، يعصرهم الحزن والأسى لفقده.

فماذا ـ تُرى ـ ، سوف تكون عليه حالتهم النفسية، عندما ينظرون إلى ذاك الذي يجري في الضفة الأخرى من المجتمع، الذي يُشكلون القسم الأكبر منه...؟

إنهم ولا شك، سوف يحقدون، وقد يجدون من يُنَمّي في قلوبهم هذا الحقد، إلى درجة تعبّر عن نفسها بردة فعلٍ مدمّرة تودي بكل شيء...

فإلى أين نحن سائرون. . . ؟

أما آن لنا أن نقف، لنلتقط أنفاسنا قليلاً، ونكفّ عن هذا اللهاث المسعور، وراء السّراب الخادع؟

علّنا نسترجع شيئاً مما فقدناه، من ضوابطنا النابعة من قِيَمنا وتراثنا، فنستعيد تلك المقوّمات الأساسية لشخصية متميّزة، أرادها الله شاهدة على الأمم، بما تستبطنه من عناصر التسامي والشموخ، والارتفاع عن مهابط الحيوان، إلى ذرى قمينة بإنسانية الإنسان، كمخلوق عظّمه الخالق وكرّمه، بما زوّده به من عقل نيّر، وبصيرة مدركة.

وليكن في مراسيم زواج ابنة نبي من أنبياء الله في الأرض، بحجّة من حجج الله، وأعظم شخصية بشرية، حملها رحم أنثى بعد خاتم المرسلين، الضوء الأحمر، الذي يوقف فينا فورة الجنون، التي تفتك بنا بلا إدراك ولا تعقّل. . .

رحى الزهراء وجيل المولينكس

روى الأوزاعي عن الزهري قال:

«لقد طحنت فاطمة بنت رسول الله، حتى تقرّحت يداها».

وفي تفسير القشيري، عن جابر بن عبد الله الأنصاري:

«إن النبي ﷺ رأى فاطمة، وعليها كساء من جلد الإبل، وهي تطحن بيديها حتى مجلتا»[١].

(١) راجع أخبار ما كان عليه حالها عليها السلام من ضيق العيش وقيامها بخدمة زوجها وأولادها وصبرها على ذلك في ذخائر العقبى، م. س. ص ٤٩ ـ ٥١.

هاتان الروايتان على اقتضابهما، والاختصار فيهما، عظيمتا المدلول، كبيرتا المعنى.

فاطمة سيدة نساء العالمين، بيديها تتولى عملية طحن الحنطة وما شاكلها، بتلك الأناة، حتى تقرّحتا. . . !

فاطمة ابنة محمد رسول الله، وخاتم النبيين، كساؤها من جلد. . . !

فما هو مدلول مباشرة الزهراء لكل عمل البيت بهذا الصبر. . . ؟

وما هو المعنى الذي يشير إليه، أن يكون كساء ابنة رسول الله من جلد الإبل. . . ؟

لقد علّمتنا فاطمة بموقفها الأول، درساً يشير إلى أن عمل المرأة في بيتها، وخدمتها لأسرتها دليل على مدى شعورها بأنها واعية لمسؤوليتها، وراعية لها، وأنه ليس من غضاضة عليها، في أن تدير شؤونه الداخلية، بشعور نابع من تعلّقها بما يرمز إليه، من حنان، وطمأنينة، واستقرار.

بل إن نجاحها في حسن رعاية أسرتها، وسياستها لمجتمعها المصغّر، سيكون أكبر شاهد ينطق بصدق، على قابليتها، واستعداداتها الذاتية، لسياسة غيرها من الأسر والمجتمعات.

وهنا، تقفز إلى الذهن ظاهرة، أصبحت طاغية على مجتمعنا الذي نعيش فيه.

هذه الظاهرة، المتمثلة في كثرة ما يسمى بمكاتب الاستخدام، وتعاظم خطرها. حيث تجد الإعلانات المبوّبة، في أية صحيفة يومية وضعت يدك عليها:

«نؤمّن الخادمة بكفالة... الخادمة الكبيرة والصغيرة... إلخ».

فما هو مدلول هذه الظاهرة، المتمثلة في كثرة ما يسمى بمكاتب الاستخدام، وإلى مَ تشير...؟

إن هذه الظاهرة في نظري، إن دلّت على شيء، فإنما تدل على أحد الأمرين أَحْلاهُما مرّ، أو على كلا الأمرين معاً:

الأول: إنّ هذه المرأة، قد خُدعت بأسطوانة تحريرها من «استعباد» الرجل لها، ومن «استعباد» العادات والتقاليد، وحثها على الانفلات من كل القيود والضوابط الفطرية، والروحية، والخلقية، ليُصارَ إلى استعبادها الحقيقي، من خلال تحويلها إلى سلعة يتقاذفها ذئاب الأرض، في أسواق الغرائزية والجنس.

الثاني: إن المرأة في مجتمعاتنا بشكل عام، بحكم تربيتها المتسيّبة واللامسؤولة، أصبحت لا تملك من مقوّمات الشخصية المتينة والسليمة، ما يؤهلها للقيام بدور الزوجة الصالحة، المدركة لما ينبغي أن تكون عليه، بعد أن تترك البيت الذي درجت فيه طفلة وشبّت، إلى بيتها الزوجي، حيث تبدأ تتكشف الجوانب الهشّة في شخصيتها تلك، بمجرد أن تجد نفسها أمام تجربة جديدة، لم يسبق لها خوضها، ومسؤوليات لم يسبق أن أُهِّلت لمجابهتها، فتنهار.

وفي محاولة منها للهروب من ضغط شعورها بعقدة الاتضاع لديها، توهم نفسها، بأن هذه أمور لم تخلق لها، وإنما خُلقت لتعيش منفلتةً، طليقة.

ولذا نراها سرعان ما تستخدم امرأة أخرى، لتتحمل عنها ما فشلت هي في تحمّله.

ومن هنا، يمكننا تفسير الظاهرة التي أشرنا إليها قبل قليل.

والحقيقة، أن زيف ما يمكن أن يتشدق به بعض بنات حواء، من ألفاظ غدت سمجة ممجوجة، حول تحرير المرأة، ومساواتها مع الرجل، يظهر بوضوح عند هذه النقطة بالذات،...

إذ كيف تجوّز امرأة لنفسها في منطق العقل، أن تكبّل غيرها من بنات جنسها، بنفس ما تصوّرت هي واهمة بأنها قد تحرّرت منه. بعد اعتبارها له عبودية تسلبها حقاً من حقوقها، أو بعض هذه الحقوق، إذ ما هو الفرق بينها، وبين أية امرأة أخرى في مجتمعها من هذه الجهة...؟

ليس من تفسير في فهمي لذلك، إلا ما سبق وذكرته من عملية تمويه ذكية أو غير ذكية، يلجأ إليها هذا الصنف المسكين من النساء، لتغطية فشلهن في ميدان هو من أخص اختصاصاتهن.

ولا ريب، في أن من كانت هذه حالها، فسوف يكون مصيرها الفشل فيما هو خارج عن هذه الدائرة أيّاً كان.

وصدق القول المأثور عن الشعب الإنجليزي:

«القويّ في قريته، قوي في لندن».

ونحن بدورنا نقول:

«الناجحة في بيتها ناجحة أينما وُجدت».

والعكس صحيح أيضاً.

وبعض النسوة ممن يملكن الخبرة في إدارة شؤون البيت والأسرة، يفضّلْنَ العمل خارج بيوتهن في مؤسسة أو مكتب أو مصنع بهدف

الكسب المادي، أو بحجة التحرر وما شاكل، تأسياً بنساء الغرب، كما أشرنا إليه في القسم الأول من هذا الكتاب.

وهنا، وتوعية لهذا الصنف من النساء، ولفتاً لأنظارهن إلى الوهم الذي سقطن فيه، نذكر لهن بعض الأصوات المرتفعة استنكاراً لما صار عليه حال المرأة الغربية بنزولها إلى سوق العمل خارج بيتها وتحذيراً من المخاطر المميتة لذلك.

يقول برتراند رَسْل: «إن الأسرة انحلّت باستخدام المرأة في الأعمال العامة، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة، وتأبى أن تظل أمينة لرجل واحد إذا تحررت اقتصادياً»(١).

وتقول (آني رورد): «لأَن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم، خير وأخفّ بلاءً من اشتغالهن في المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب بِرَوْنَق حياتها إلى الأبد. ألاَ لَيْتَ بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحشمة والعفاف والطهارة... ولا تمسّ الأعراض بسوء... فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها...»(٢).

ويقول جول سيمون: «المرأة التي تشتغل خارج بيتها تؤدي عمل عامل بسيط، ولكنها لا تؤدي عمل امرأة»(٣).

---

(١) كردعلي: الإسلام والحضارة، ٢٠/ ٩٢.

(٢) مجلة المنار، للشيخ رشيد رضا، المجلد ٤/ ٤٨٦. نقلاً عن جريدة استرن ميل، عدد/ ١٠، أيار ١٩٠١.

(٣) نقلاً عن كتاب؛ الإسلام روح المدنية، مصطفى الغلاييني، ص ١٩٩.

ولقد علمتنا فاطمة بموقفها الثاني، درساً ذا ثلاث شُعَب:

الأولى: تدور حول ضرورة أن تقدّر الزوجة وضع زوجها المادي، وتشاركه حياته عن رضى منها، لا وجدانياً فقط، بل عملياً أيضاً، حلوها ومرّها، في السراء والضرّاء. فلا تحمّله ما لا يطيق، ولا تُلحّ عليه بطلب ما لا يقدر على تلبيته، فتحيله إلى إنسان معذّب، يشعر بالنقص والتقصير، مما يدفعه إلى ارتكاب الحماقات، كما قد يتفق حصوله كثيراً في مجتمعنا.

فكم من موظف انزلق تحت ضغوط زوجته المادية، إلى الخيانة والاختلاس، أو تصاب هي بنفس هذا المرض.

وعلى ضوء ذلك نتساءل: كم من نساء مجتمعنا، يحاولن أن يتمثلن ذلك، ويطبّقنه بالنسبة لأزواجهن...؟

الثانية: تدور حول ضرورة التقيّد التام بحرفية الرسالة الإلهية، التي يمثلها أبوها النبي الأعظم، في الدرجة الأولى، كما مثّلها زوجها عليٌّ من بعده، وفي حياته. وذلك بتنفيذ ما تضمنته من أوامر بالتعالي على الذات والأهواء.

وما تضمنته من نواهٍ عن الانسياق وراء النزعات الفردية والمواقف الأنانية.

والتحذير من اتخاذ المنصب، أو المركز، وسيلة لاستعباد الناس.

أو اعتباره بقرةً حلوباً يستأثر بضرعها دون الأمة.

بل ينبغي عليه، وقد جعله الله للناس إماماً، أن يتساوى مع أضعفهم، لئلاّ يبطر الغني ويطغى، أو يَجِدَ الفقير في نفسه غضاضة،

فيتألم ويحقد، بل يكون في سلوكه لكليهما الاقتداء والتأسي والعزاء.

فأين نحن، مما أراد الإسلام ـ من خلال موقف فاطمة ـ أن يلقّننا إياه.

سواء منّا مَن كان في مركز مسؤولية، أو لم يكن، من أبناء وأقارب وأصدقاء؟

الثالثة: ذلك الصبر الرائع، النابع من أعماق فاطمة، والذي غرسه الإيمان، فولّد رضى وسلاماً.

سلاماً مع نفسها، وسلاماً مع محيطها.

ذلك الصبر، الذي جسّدته كلمة للزهراء قالتها: ـ فيما يروي الثعلبي في تفسيره ـ عندما اطلع أبوها رسول الله ﷺ عليها، هي على ما ذكرناه من حال، فَدَمَعَتْ عيناه:

«يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه».

فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[(١)].

فأين هي تلك المرأة من نساء أمتي، التي تجد في نفسها، بعد أن تفتش فيها، مثلَ ذلك الرضا بقَدَرِها، تعقد من خلاله سلاماً مع ذاتها، ومع مجتمعها الذي تعيش فيه، فتحاول أن تفكر بعقل هادئ، وقلب مطمئن، في كيفية تغيير ما عليه وَضْعُها الأسروي، من حال سيئة نحو الأفضل، بعيداً عن التذمر، والتأفف، والشكوى.

التي تعقّد الأمور، وتزيد الطين بلّة كما يقال...

(١) الضُحى/ ٥. والخطاب للنبي ﷺ.

فضّة

فضّة، اسم ارتبط بالزهراء ارتباطاً وثيقاً.

في حين أن حاملة هذا الاسم، لم تكن في الأصل، سوى جارية، أنفذها رسول الله ﷺ، بعد أن تحسّن وضع الأمة من نواحٍ عدّة لخدمة فاطمة. وأطلق عليها بنفسه الاسم المذكور.

ونحن، عندما نتعرض لهذه المرأة في سياق بحثنا عن الزهراء، فإنما نفعل ذلك بدافعين:

الأول: إنّ هذا الاسم، إنما ظهر، وبرز، وارتبط بمرحلة من مراحل حياة الزهراء، هي مرحلة زوجيّتها لأمير المؤمنين علي عليه السلام، ولذا فلن يكون تعرّضنا لفضّة، خارجاً عن صميم بحثنا لهذه الفترة من حياة سيدة النساء...

الثاني: إنَّ هدفنا من هذا البحث كلّه، ينحصر فيما يمكن أن نستفيده من دروس وعبر، خلال عرضنا لنتفٍ متناسقة من الشخصية المقدسة.

ولا ريب، أن علاقة فضة بالزهراء، كانت حافلة بالخطير من تلك الدروس، والمؤثّر من هذه العبر.

وعليه، فَنَظَرُنا، سوف ينصبّ على هذه الناحية بالذات، دون إطناب، لنبقى في حدود ما رسمناه لأنفسنا من هدف.

إنسانيةٌ فذّة وخُلُق عظيم

أول ما يلفت نظرنا في علاقة فضة ببيت الزهراء، هو ذلك الموقف العظيم، الذي اتخذته سيدة البيت الكريم من خادمتها فضة.

حيث يروي المؤرّخون، أنها قسّمت خدمة البيت بينها وبين فضة، فجعلت يوماً لفضة تؤدي فيه عملها، وتقوم هي بمسؤوليات الأسرة يوماً آخر.

مدلول ذو شقين

ماذا يمكن أن نستخلص من موقف الزهراء هذا مع خادمتها.

إننا بعد التأمل مليّاً، يمكن أن نستفيد درسين اثنين، حبذا لو حاولت كل امرأة في أمتي أن تعيَهما وتطبّقهما:

الأول: هذا الخلُقُ العظيم، وهذه الإنسانية الفذّة، فمن هي فضة في مقاييس أهل الأرض؟

إنها لا تعدو أن تكون أَمَة من بين مئات الإماء في المدينة، ساقها قَدَرُها السعيد، إلى بيت ابنة سيّد الكائنات، وسيدة نساء العالمين. ومع ذلك نرى أن فضة الأمة، وبمجرد أن وطأت بقدميها عتبة ذلك البيت العظيم، عوملت بشكل لم تكن لتحلم به حرّةٌ، فضلاً عن أَمَة، في ذلك المجتمع العربي، الذي كانت تحرّك علائقه الاجتماعية، المواضعاتُ القبليّة، التي تقوم على أساس من النظرة الفَوْقية المنبثقة عن الشعور بالعِرْقية والطَّبَقية، فجاء موقف فاطمة ذاك، ليحطم تلك الأسس العفنة لذلك المجتمع. وليقضي على تلك النظرة الظالمة، التي تصنّف الخلق إلى مراتب: دنيا وعليا، دونما منطق عقلاني.

ولتركّز مفهوم الإسلام السّمح، الذي يدور حول أن الخلق عيال الله، وأقربهم إليه أنفعهم لعياله، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير، إلا بالتقوى والعمل الصالح.

لقد أرادت الزهراء من خلال موقفها ذاك، أن تشعر فضة وأمثالها بإنسانيّتهن. ولذا لم تميّز نفسها عنها حتى في شأن، هو من أخصّ واجباتِ الأَمَةِ بالنسبة لمالك أمرها.

الثاني: ولعلها ـ عليها السلام ـ كانت تطلّ من وراء القرون على مجتمعنا المعاصر، فترى ما صار إليه حال نسائنا، حيث أضعن أُسَرَهُنَّ وسَيِّبْنها، عندما أسلمنَ بيوتَهن، بما فيها من فلذات أكبادهن، للخدم، والحاضنات المستأجَرات.

فأرادت أن تضرب لنا المثل السليم بموقفها، فتمحضنا العظة، وتعطينا القدوة.

لقد أرادت عليها السلام أن تقول لهؤلاء، مجسّدة عملياً ما تقول، بأن من أوضح الواجبات الأدبية والعرفية للمرأة تجاه أسرتها، وأهم مسؤولياتها، حتى عند قدرتها على استخدام الحاضنات، واستقدام المربيات، وامتلاك الخادمات، لا يجوز لها بحال، أن تقف من أسرتها موقف السلبية واللاّمبالاة. بل من المفروض فيها، أن تحافظ على ارتباطها العضوي بتلك الأسرة، وتعمّق هذا الارتباط وجدانياً، بإضفاء جو من الحنان، والعطف، والتفاني على أفراد الأسرة. وعملياً، بالمشاركة في تلبية طلباتهم اليومية في التدبير المنزلي بكل أشكاله وصوره، بقطع النظر عما يمكن أن تؤديه الخادمة أو المربية في المجال الثاني، مع ملاحظة عدم قدرتها على تقديم أي عون جوهري في المجال الأول، إذ ليست المستأجرة كالثكلى، كما في القول المشهور.

فضّة في ثوبها الجديد

ولكن، هل أنَّ دور الزهراء بالنسبة لخادمتها فضة، قد اقتصر على

ما ذكرناه، من إشعارها بإنسانيتها، خلافاً لما كانت تقتضيه مواضعات المجتمع القبلي آنذاك. والتي كانت تركّز في أمثال فضة ذكوراً وإناثاً، معاني الحيوانية، وتعمق الهوة بينهم وبين غيرهم من مخلوقات الله. وتؤكد فيهم روح الخنوع والاستعباد، فتكبّلهم داخلياً وخارجياً بثقل القيود.

أم إنها عليها السلام، قد جهدت مع فضة، لتعمّق فيها شعورها الإنساني، وانتماءها العضوي للمجتمع البشري، ولكن كما أراد الله، لا كما مسخته إرادة الشر والطغيان في هذا الإنسان.

نعم، أرادت الزهراء، أن تكمل مسيرتها مع خادمتها تلك، والتي كانت قد بدأتها منذ اليوم الأول، لتثبت للأجيال في عصرها، وفي كل عصر، أن تكريم الله لهذا المخلوق، إنما كان عاماً شاملاً لا استثناء فيه، بلحاظ تأهيله ليتحمّل ثقل المسؤولية التي ألقيت على عاتقه في الأرض. ومن أبده بديهيات هذا التأهيل، أن يولد حراً ويبقى كذلك. وما تلك القيود التي كُبّل بها بعضُ بني الإنسان، سوى انحرافات لبعض آخر من بني الإنسان، سعى إليها، وصنعها بغطرسته وجهله، وأنها مهما بلغت من القسوة والعنف، فلن تقوى على قتل إنسانية هذا الكائن المعظّم.

وإنَّ العبودية المصطنعة، ما كانت يوماً لتمنع الكائن العاقل ـ عندما يريد ـ من أن يسمو ويحلّق، إذا تبدّت أمامه معالم الطريق، وتمزقت عن عينيه سُجف الظلام، بشرط وجود ذلك الإنسان الصادق، الذي يأخذه بيده مرشداً ودليلاً.

عن هذه الرؤية، بكل أبعادها ومنطلقاتها، صدرت فاطمة في موقفها مع فضة، حيث استطاعت أن تحوّلها من مجرد أَمَةٍ جاهلة لا

تفقه من كتاب الله آية، إلى امرأة متفقّهة مثقفة، انقضى الشطر الأكبر من حياتها مطبوعاً بطابع ابنة النبي، طابع القرآن وتعاليمه في التشريع، والأخلاق، والآداب، والسلوك.

تلخص هذا كله بوضوح، حادثة معبّرة وطريفة، رواها القشيري في كتابه، عمن كان طرفاً فيها، وأثبتها ابن شهرآشوب قال:

«انقطعتُ في البادية عن القافلة، فوجدت امرأة، فقلت لها: مَن أنتِ...؟

فقالت: ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فسلّمتُ عليها وقلت: ما تصنعين ها هنا؟

قالت: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ...﴾[2].

فقلت: أمن الجن أنت أم من الإنس؟

قالت: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾[3].

فقلت: من أين أقبلت؟

قالت: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[4].

فقلت: أين تقصدين؟

قالت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[5].

---

(١) الزخرف/ ٨٩.
(٢) الزُمَر/ ٣٧.
(٣) الأعراف/ ٣١.
(٤) فُصّلت/ ٤٤.
(٥) آل عمران/ ٩٧.

فقلت: متى انقطعت؟

قالت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[١].

فقلت: أتشتهين طعاماً؟

فقالت: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[٢].

فأطعمتها، ثم قلت: هرولي وتعجّلي.

فقالت: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣].

فقلت: أردفك؟

فقالت: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤].

فنزلت فأركبتها فقالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾[٥].

فلما أدركنا القافلة قلت لها: أَلَكِ أَحَدٌ فيها؟

قالت: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٦].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[٧].

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٨].

---

(١) ق/ ٣٨.
(٢) الأنبياء/ ٨.
(٣) البقرة/ ٢٨٦.
(٤) الأنبياء/ ٢٢.
(٥) الزخرف/ ١٣.
(٦) ص/ ٢٦.
(٧) آل عمران/ ١٤٤.
(٨) مريم/ ١٢.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ. . .﴾(١).

فَصِحْتُ بهذه الأسماء، فإذا بأربعة شباب متوجهين نحوها، فقلت: من هؤلاء؟

قالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢).

فلما أتوها قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾(٣).

فكافوني بأشياء، فقالت: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾(٤). فزادوا لي.

فسألتهم عنها، فقالوا: هذه أُمُّنا فضّة، جارية الزهراء، ما تكلّمت منذ عشرينَ سنة إلاّ بالقرآن. . .

توجّه ورجاء

وبعد، يا نساء أمتي.

هل لي أن أتوجّه إليكنَّ برَجاء ـ وقد كَثُرَ بينكنَّ في هذا العصر ـ وجود الموجِّهين والموجِّهات، والمرشدينَ والمرشدات، أنْ تعرنَ اهتمامكنَّ لتحصيل جزء مما حصلت عليه فضة، من أدب القرآن وتعاليمه، ليسجلَ التاريخُ الحديثُ لهذه الأمة العظيمة، ما حفظه لها تاريخها القديم، من حقيقة، لا يمكن أن تكون قديمة أو جديدة، وإنما تعيش في أعماق الإنسان أنّى كان، أملاً ينعش النفوس، ونوراً يشعّ فينير

---

(١) طه/ ١١ و١٢.
(٢) الكهف/ ٤٦.
(٣) القَصَص/ ٢٦.
(٤) البقرة/ ٢٦١.

العقول. واستئنافاً لانطلاقة مباركة، بدأتها الزهراء مع فضّة، لتصلَ إلينا عبرَ القرون، فتستفيد منها أجيالنا، جذوةً تعيد إليها دفء الإيمان، وَهَدْيَ القرآن:

﴿بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

درسٌ في علم اجتماع الأسرة

علم اجتماع الأسرة، عنوان قد يثير في أذهان قطاع كبير من أبناء مجتمعنا، هالة تأخذ صفة الخشوع والقداسة.

فالموضوع خطير ومهيب، لأنه يدور حول علم، له من المكانة في خانة العلوم الإنسانية، المرتبة الرفيعة.

ولذا صنّفت فيه مئات الكتب بل ألوفها. ولكن مع الأسف الشديد، لم يكن لتلك الأكداس من الكتب، من أثر ملموس، في تحسّن الوضع الاجتماعي، على امتداد رقعة الأرض التي يشغلها هذا المخلوق.

بل على العكس، كلما كثُرت وتنوَّعت أساليب البحث فيها، كلّما تقهقر المجتمع البشري، في خط سيرٍ هابطٍ باستمرار، إن في عالم القيم، أو عالم العلاقات الإنسانية.

وهذا يكفي للدلالة، على أن العبرة ليست في كثرة التنظير والمنظّرين. وليست في ناحية الكَمّ في أي مجال، وإنما العبرة في الصدق والمناقبيّة.

---

(١) الأحقاف/ ٣٥.

الصدق، الذي يعبّر عن نفسه في موقف عملي نابع من أعماق الإنسان السويّ، حيث يجسّد في ذلك الموقف ببراءة وعفوية واعية، ما عجزت عن تصويره أجيال من الكتّاب والعاملين في حقل الاجتماع البشري.

ولن نحتاج هنا، إلى أكثر من مجرد الإشارة إلى مواقف الزهراء كزوجة، إلى جانب زوجها علي عليه السلام، في أَحْلَك الظروف، وأقسى الأوقات، حيث كان يخوض آنذاك، مواجهةً حادة بين خطّين، ونظرتَين، جمعتهما رقعة من الأرض صغيرة هي «المدينة»، ولكن كانت تفصل بينهما مسافة هي ما بين الأرض والسماء. وكان عليّ يمثّل منهما خط السماء ونظرتها.

أوَ هَلْ كان عليّ، بحاجة ـ يا ترى ـ ، إلى مساعدة ومعاونة؟ إنْ في عالم السيف أو البيان.

معاذَ الله، عليّ وكفى، سيّد البلغاء، وفارس الهيجاء...!

أو ليس هو باب مدينة العلم؟

أو ليس هو الذي يقول[1]: «سلوني قبل أن تفقدوني، فَلأَنا أعلمُ بطُرُق السماء مني بطُرُق الأرض»؟

أو ليس هو القائل: «...لأَلقَيْت حَبْلَها على غارِبِها، ولسقَيْتُ آخرَها بكأس أوّلها...»؟[2]

إذن... فما معنى أن تقف الزهراء إلى جانبه في مواجهته مع الانحراف آنذاك...؟

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة/ ١٨٩.

(٢) نهج البلاغة/ الخطبة ٣. والغارِب: الكاهِل.

وهنا، يتجسَّدُ الدرس الذي أرادت فاطمة الزوجة، أن يسجّله التاريخ بأحرف من نور، ليصلَ إلى الأجيال عبر الأجيال، متخطياً العصورَ والدهورَ، فنعمل بمحتواه. . .

لقد أرادت عليها السلام، أن تبيّن من خلال مواقفها إلى جانب زوجها ابن أبي طالب، ما ينبغي أن تكون عليه الزوجة في محنة يمر بها شريك حياتها، ورفيق دربها، وما ينبغي أن تجمع بين قُطْبَي الأسرة في مثل تلك المحن، من روابط عميقة، تجسّدها مواقف، وتترجمها إرادات.

كل ذلك، لتشعرنا بمدى أهمية الجبهة الداخلية، وضرورة تلاحم أجزائها، لتقوى على مجابهة الأخطار، وتجاوز المشكلات.

وإنها بمقدار ما تكون متماسكة، بمقدار ما تُحَقّق ذلك.

وعلى العكس، سوف تكون مصدر خطر عظيم، وتَلاشٍ أكيد، فيما إذا كانت مفكّكَةَ العرى، مزعزعةَ البنيان.

وعلى ضوء هذه الحقيقة، نفهم الهدف من مواقف الزهراء كلَبِنَة في الأسرة العريقة، التي يمثل علي مع أبنائه الأطهار فيها بقية اللَّبِنات.

وإن كانت تلك المواقف، لا تخلو من جوانب أخرى مشرقة، تكشف عن أهداف كبرى، ودروس لا تقل أهمية في حياتنا، سوف نعرض لها في فصل آخر إن شاء الله. . .

ـ ٤ ـ

فاطمة الأم

تمهيد

الأمومة، كلمة توحي للسامع عند إلقائها، من المعاني النبيلة، وتثير في نفسه من الأحاسيس الرقيقة، الشيء الكثير، إنها تعني العَطاء في كل شيء.

فالأنثى، منذ أول يوم تحسّ فيه بوجود شيء في رحمها، تصطخب في أعماقها مشاعر العطف والحنان لمن تحمل في داخلها، تناغيه وتناجيه، وترسم له في مخيلتها الصورة المحببة والأثيرة، لا يمنعها من ذلك كلّه، كونه في ظلمات ثلاث، كما أخبر سبحانه[١]:

ظُلمة البطْن، وظُلمة الرَّحِم، وظُلمة المَشيمَة.

وإلى جانب تلك المشاعر، التي تتعاظم كلما تقدم بها الحمل، تتعاظم آلام الحمل نفسه، مع ما يرافقها من وهن على وهن في جسمها، الذي يفقد طيلة تسعة أشهر كميّاتٍ كبيرة من الدم، يمد بها ـ بعد تحويله من قبل الغلاف الأكّال ـ ذلك الجنين ليتغذى وينمو ويكتمل.

---

(١) قال تعالى: ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ...﴾. الزُمَر/٦.

إذاً، فهذه المرأة الأم، منذ يوم حملها الأول ذاك تبدأ عملية العطاء.

عطاء روحي، وعطاء مادي.

ومن البديهي، أن الزهراء في هذا، ليست بِدْعاً مِن النساء، وإنما هي كَكُلّ أُنثى، لا بدّ وأن تخالِجَها نفسُ المشاعر والأحاسيس، وتقاسي نفس الآلام.

وهذا هو القاسم المشترك، بين كل نساء الأرض، ممن وُجدْنَ في الماضي والحاضر، ومن سيوجد منهنَّ إلى أن تتبدّل الأرض غيرَ الأرض والسموات. . .

ولكننا، في هذا الفصل، كما في غيره من الفصول، ما جئنا لنفتش عن القواسم المشتركة، لوجه كونها كذلك، بل لنبحث وننقّب عن وجوه افتراق داخل هذه القواسم، وخارجها على حد سواء. وإلا فلن يكون لبحثنا ما رسمناه له من فائدة وغناء.

وهنا، لا بدّ لنا من عَرْض نُتَف من حياة الزهراء الأم، لنقوّم على ضوء منها، حياة كل أمّهاتنا في هذا العصر. علّهن من خلال هذا الوميض، يدركنَ ما في أمومتهنَّ من ثغرات، لا يسدّها إلا تمثّلهن لأمومة فاطمة.

ونقاط ضعفٍ، لا تتداركها إلا مواطن القوة في تلك الأمومة.

فاطمة: فورة ألم ودفقة حنان

مما أثر عن رسول الله ﷺ قوله:

«ما أوذِيَ نبيٌّ بمثل ما أوذيتُ»[١].

والحقيقة، إنه ما من أنثى، أوذِيَتْ، بمثل ما أوذِيَتْ به فاطمة...

وما من أنثى اعتُصِرَ قلبُها من الألم، مثل ما اعتُصِر به منه قلب الزهراء...

وإذا كان النبي قد أوذيَ بما أوذيَ به من عُتاة قومه في الله، فإن ما أوذِيَتْ به فاطمة من قِبَل عتاة قومها، كان في الله وفي الناس.

أما أذيَّتها في الله، فقد ابتدأت منذ أول يوم أعلن أبوها بدعوته إلى ربه.

ابتداءً من تكذيبهم، وَرَمْيِهم له بالسحر تارةً، وبالجنون أخرى.

مروراً بمواقفهم منه ومن أتباعه المتمثلة في حروبهم المادية لهم والمعنوية.

وانتهاءً بانحراف الأمة عمّا خطط لها من مسار.

وتنكُّرها لما خلّفه فيها من الثقلين الأكبر والأصغر، الكتاب والعترة...

وأما أذيَتها في الناس، فيلخّصها أمر واحد، هو كونها زوجة رجل، له قصب السبق في كل شيء بعد رسول الله ﷺ، في السماء والأرض. دنيا وآخرة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، ٣/ ٤٢. وجواهر المطالب، لابن الدمشقي الشافعي ٢/ ٣٢٠. وورد: ما أُذيَ أحدٌ...، في كنز العمال، للهندي، ٣/ ١٣٠.

وكأنّ القوم أرادوا أن تدفع الزهراء ضريبة هذه العلاقة الزوجية بينها وبين عليّ، آلاماً وعذاباً وأحزاناً، سداداً لثأر للبعض منها، عندما رفضته زوجاً بعد أن تقدم لخطبتها كما سبق وأشرنا إليه. . .

وفي اعتقادي، إنَّ كل هذه الآلام، وتلك الأحزان، لم تكن لِتَرِدَ على الزهراء لو لم تكن زوجة عليّ.

عيناً، كما هو اعتقادي، بأن أبا طالب، مؤمن قريش، ما كان لِيُتَّخَذَ غرضاً من قِبَل البعض للطعن فيه، والقول بموته مشركاً لو كان أباً لغير عَليّ.

بل إني أجزم، بأنه لو كان أباً لمعاوية، لكان نفس هؤلاء الطاعنين بإيمانه قد جعلوه من أحسن الناس إسلاماً، بل لكانوا جعلوا منه الصدّيق الأكبر. . .

نعم، ما من أنثى أوذِيَتْ بمثل ما أوذِيَتْ به فاطمة كَمّاً وكَيْفاً، وذلك ما دفعها إلى القول فيما يروي المؤرخون:

صُبَّتْ عليّ مصائبٌ لو أنها صُبَّتْ على الأيام صِرْنَ لياليا

ومع ذلك، فإن كل هذه المصائب التي كانت تترا على بضعة النبي، لم تكن لتصرفها عن تحمّل مسؤولياتها كأم تجاه أولادها.

ولم تكن لتنقص من حنانها لهم، ولا من رقّتها وعطفها عليهم مثقال ذرة.

بل بقيت بالنسبة إليهم، ذاك المنبع الثّر للحنان والرقة والعطف.

مشهد واحد نعرضه هنا، كي يحكي بجلاء وبساطة عمّا قلناه.

فقد روي عنها إنها كانت تأخذ ولدها، وتغنّجه وتهدهده قائلة:

بــأبــي شِبْــه الــنــبــي لــيــس شــبــيــهــاً بــعــلــيّ

أتصوّر هنا الزهراء عليها السلام، كأية امرأة منبسطة الأسارير، منشرحة الصدر، وكأنها لا تنوء بالهموم، ولا تثقل قلبُها الأحزان، تعيش بكل جوارحها مع فلذة كبدها تناغيه.

وأتصور علياً، وقد جلس يرقب ذلك المشهد مبتسماً مغتبطاً، وهو يستمع إلى تلك الأرجوزة، التي تحمل بين كلماتها معنى محبباً إلى قلبه. وإن كانت الزهراء، قد أرادت من إلقائه على مسمع منه ـ كأية أم ـ أن تغيره غيرةً بريئة، فيها من الإلفة والود، بقدر ما فيها من الانسجام والاحترام، حينما تنسب شبه ابنه لأبيها دونه.

ومن أعظم من نبي الرحمة أن يعقد شَبَهٌ خلقي بينه وبين إنسان هو منه؟

ومن أوْلَى من علي أن يعتز ويفتخر، ويغتبط بشَبَه كمثل هذا الشبه؟

ولكنها كما قلت، شخصية الإنسانة العظيمة، التي تتعالى على الألم، وتتجاوز الأحزان، لتشيع في الأسرة نفحات من الهدوء والاستقرار.

ونسمات، تحمل بين طيّاتها، سلام النفس وطمأنينة الروح.

نظرة وعبرة

وعلى ضوء ما عرضناه، كيف نجد الأمهات في مجتمعنا، عندما نجيل الطرف بينهنَّ، بنظرة تخرق الجُدُر، وتجتاز الأبوابَ المغلقة، لتطّلع على ما هن عليه من حال، فيما يختص بعلاقتهن مع أطفالهن.

قد يصكّ أسماعنا عندما نلج، صوت رضيع في سريره باكياً، أو على أرض البيت مهملاً.

وعندما نفتش عن أمه، نجدها منشغلة عنه، إمّا بحديث من الشباك مع جارتها، أو على التلفون، أو في المطبخ، وهي تسمع صراخ ابنها فلا تسرع إليه.

وإن هي أسرعت نحوه، فلأنها تعلم بأن «المصّاصة» قد سقطت من فيه، فتلقمُه إياها، لئلا يُتْعِبُ صراخُه أعصابَها، ويثيرَ فيها ما يكون قد تبقّى عندها من ضمير أمّ أثقلتها الهموم والآلام.

وقليلات ما هنّ، أولئك الأمهات اللواتي نجد منهن العاطفة الواعية، والحنان يمحضنه أطفالهن بصدق وإخلاص.

هذا، إذا وجدناها أصلاً في المنزل، ولم تكن مرتبطة بعمل جسدي أو فكري، في معمل، أو مكتب خارجه. فنجد عنده الحاضنة، أو الخادمة، أو أخته التي قد لا تكبره إلاّ بسنوات قليلة، لا تملك من التجربة شيئاً، بل هي بحد ذاتها في حاجة إلى من يخدمها.

ولا إشكال، في أننا لن ننتظر منهن جميعاً أكثر مما لمسناه من أم الطفل نفسها. إذ ليست المستأجرة كالثكلى كما قيل...

ومن هنا يحق لنا أن نتساءل:

ماذا ينتظر المجتمع من مثل هذا الطفل، عندما يكبر على هذا النحو؟

هل ينتظر أن يكون طاقة تشع الحنان، وتمنح لمن حولها الرقة والعاطفة؟

إن مثل هذا الطفل ـ في اعتقادنا ـ سوف يترعرع ويشبّ، وفي أعماق لا شعوره، شعور بالغربة، وإحساس بالضياع، قد ينمّيان في نفسه نوعاً من الانطوائية، والانزوائية، وربما الحقد، لأنَّه لم يذق طعم العاطفة، ولم يشعر بدفء الحب.

وعلى أساس من هذا الاستنتاج، يمكن أن نفسّر ظاهرة الرفض الذي تتميز به الأجيال المتأخرة من أولادنا.

ظاهرة الرفض لكل شيء، حتى أنهم كثيراً ما يلجأون للتعبير عن رفضهم ذاك، بأعمال تخريبية، لمنشآت خاصة وعامة، وباعتناق مذاهب هدّامة، تقوم أساساً على تنمية الحقد والكراهية، فيجدون فيها ما يوافق هوى نفوسهم. ونعتقد بأن الأم قادرة، عندما تكون صادقة مع نفسها، وفيّة لمسؤوليتها، أن تغيّر هذه الصورة القاتمة للأجيال، فتريح وتستريح.

تريح المجتمع مما يتهدّده من أخطار مدمّرة.

وتستريح في أعماق ضميرها هي، بالقيام بما تتطلّبه أمومتها لأطفالها، من تغذيتهم مع لبنها، بمعاني الحنان والعاطفة، وتعمّق فيهم شعورهم بالانتماء الإنساني.

وهذا لن يتأتى، إلاّ بالعزوف عن الانغماس في شؤون خارجة عن اختصاصاتها، تستنزف كل طاقاتها الجسدية، والروحية، والنفسية، بحيث لا تترك لها مجالاً لما هو الأَوْلى والأهم من عطاء. . .

إذ ما قيمة أن يربح الإنسان الدنيا، إن هو خسر نفسه وأسرته.

إيثار واصطبار

والوجه الآخر من الصورة الرائعة للزهراء الأم، يطالعنا من خلال مشهد ثانٍ، التقطه التاريخ في أحد الأيام القائظة من عام العطش.

ذلك العام، الذي منعت فيه السماء قطرها، فوقع الناس في ضيق شديد.

نرى الزهراء، تحمل ولديها: الحسن والحسين عليهما السلام، إلى أبيها النبي صلى الله عليه وآله، يتململان من الظمأ، مع تفطّر كبدها منه هي الأخرى، فيأخذ صلى الله عليه وآله هذا مرّة، ومرّة ذاك، ويعطيه لسانه ليلهو بامتصاصه، ويرتوي من بقية رطوبة فيه.

ونعتقد إنَّ المشهد هذا غنيّ عن التعليق، لأنه يضجّ حيويّة، بما يزخر به من معاني الإيثار والاصطبار.

وقد تذكرنا هنا بعض الأمهات، ـ أثناء الغزو الإسرائيلي الأخير لمنطقة جبل عامل الحبيبة، ممن أطلقن سيقانهن للريح، هاربات نحو بيروت طلباً للنجاة، وقد نسين أطفالهن الرضّع في أسرّتهم، ولم يتذكّرنهم إلا عندما وَصَلْنَ العاصمة.

كما تذكرنا تلك الحوادث الكثيرة الوقوع في مجتمعنا، حيث تهرب الأم من زوجها وأسرتها، مع عشيقها العتيد، مؤثرة غرائزيتها وحيوانيتها، على كل ما ترمز إليه الأسرة من قِيَم ومقدسات.

اعتذار

ونحن، إذ نورد ما نورده هنا بالخصوص، ـ معتذرين آسفين ـ لا لنعقد مفاضلة بين أمومة الزهراء عليها السلام وغيرها من الأمهات.

وإنما هدفنا، مواجهة واقع فاسد نعيشه، تحوّل في نفوس الكثير منّا من بعض جوانبه ـ على ما فيها من ضلال ـ إلى طاقات شعورية منحرفة، ومواضعات تبلّد معها الإحساس، حتى لم نعد ننظر إليها على أنها شذوذ وانحراف، بل على أنها قاعدة، قد لا يثير فينا حصولها بيننا ـ على الغالب ـ ، ما ينبغي أن يحصل، من ردّة فعل الإنسان السويّ، حينما يقع أمام ناظرَيْه شيء من المنكرات.

ومثل هذا التبلّد الإحساسي، يحتاج إلى صدمة علّها تعيد ـ عند إحداثها ـ الحياة إلى هذا الضمير الهامد، وذاك الإحساس المشلول، ولو على نحو الموجبة الجزئية، كما يقول المناطقة.

الأم راعية في بيتها وهي مسؤولة

أرأيت إلى ذلك الإنسان، الذي يقف على تلة من الرمال ناشزة في الصحراء، تحت أشعة الشمس المحرقة، أو تحت وابل المطر الهاطل، أو وسط العاصفة الصحراوية المزمجرة، يتلفت في كل الاتجاهات، حيث ينتشر قطيعه من الغنم، يغتذي بما يجده أمامه بين الكثبان؟

وقد يصكّ سَمْعَك، وأنت ترقبه بحركاته اليقظة تلك، صوت يصدر عنه، فيه من التنبيه بقدر ما فيه من التأنيب، فتلتفت نحو الجهة التي وجّه إليها صرخته، لتجد رأساً من القطيع كان قد شذّ عنه، فأعاده الصوت المألوف إليه.

أو رأسين قد احتدما في نطاح ففرّق بينهما.

أو غير ذلك. . . ؟

إن هذا الإنسان، هو من يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ الراعي.

ولا إشكال في أن انطباق هذا اللفظ عليه، لم ينشأ من مواصفات جسدية أو شكلية فيه، إذ ليست هذه الأمور من مختصاته هو فقط.

وإنما نشأ من حركاته وسكناته، التي صَوَّرْتُها لك قبل قليل. والتي تهدف أول ما تهدف، إلى حفظ قطيعه من كل ما يتهدّده، ورعايته له ـ في حدود الطاقة ـ من كل مكروه.

وإلاّ، لكان إطلاق لفظ الراعي عليه بلا استحقاق.

وإذا كان قطيع الغنم، يستأهل كل هذه الاهتمامات من الملاحظة والرعاية، وهي لا تتم إلا بوجود راعٍ له يتحمل مسؤولية رعايته. فالمجتمع البشري ولا شك، أَوْلَى بالرعاية، والعناية، والاهتمام، وإلا لوقع في التيه، وانزلق في المخاطر، وحلّت به النكبات.

وانطلاقاً من هذه الأطروحة البسيطة والبديهية، أوْلى الإسلام الإنسان كشخص، والمجتمع الإنساني كبنْية اجتماعية متماسكة، الرعاية، وجعلها مسؤولية متضامنة مترابطة، طلب من كل واحد من أبناء النوع الإنساني، أن يعتبرها مسؤوليته، في حدود إمكاناته، وما يقع ضمن دائرة اختصاصاته، ذكراً كان أو أنثى.

وعلى هَدْي هذه النظرة نفهم قول رسول الله ﷺ:

«ألاَ كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مسؤول عن رعيته»[١].

ومن هنا ـ أيضاً ـ نفهم بعض مواقف الزهراء الأم من أولادها.

---

(١) البخاري، كتاب الأحكام، ٩/ ٧٧ و٩/ ٨٠. وصحيح مسلم، ٦/ ٧ ـ ٨، و١٢/ ٢١٣، مع اختلاف في بعض الألفاظ، دار إحياء التراث العربي.

يكفي منها، ما رواه كتّاب السيرة، من أنها عليها السلام: «أقبلت على أبيها مرّة تبكي، فقال لها: ما يبكيك يا فاطمة؟

قالت: إن الحسن والحسين، قد غابا عني هذا اليوم، وقد طلبتهما في بيوتك فلم أجدهما، ولا أدري أين هما...».

فهذا الموقف من فاطمة عليها السلام، بالنسبة لولدَيْها، يوحي إلينا بدروس كبيرة في مجال رعاية الأبناء والاهتمام بهم من قبَل الأم، التي تعتبر مسؤوليتها تجاههم أساسية وجوهرية.

وأول ما يلفت نظرنا في هذه الحادثة ـ ونحن نستنطقها لنستفيد منها التوجيه السليم، هو بكاء الزهراء.

ولماذا تبكي الزهراء؟

أَلأنَّ ولديها قد غابا عن عينيها ساعة أو أكثر، فسبّب ذلك عندها خوفاً من أن يكونا قد تاها في الصحراء، أو ضلاّ سبيلهما في شوارع المدينة وأحيائها...؟

إنّ هذا ـ من وجهة نظرنا ـ لا يصلح أن يكون سبباً لبكاء الزهراء، وتوجهها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإحاطته علماً بالأمر، وذلك لعدة أمور أهمها:

أولاً: إنَّ المدينة آنذاك، لم تكن الحاضرة الضخمة، المنتشرة والمترامية الأطراف، بحيث تؤدي إلى ضياع طفلي الزهراء في شوارعها وبين أحيائها.

ثانياً: إنَّ المدينة ـ كلها في اعتقادنا ـ كانت تعرف عن حسّ، شَخصَي حسن وحسين، وتعرف من يكونان، ولمن ينتسبان، وكيف

وهما ابنا رسول الله ﷺ، وريحانتاه من الدنيا، ولذا سوف يعتز أي مسلم يعثر عليهما، بإرجاعهما بنفسه، وبأقصى سرعة إلى بيوت النبي ﷺ، لينال الأجر والثواب العظيمين، بإدخاله السرور على قلب قائده، وقلب والدَيهما على حد سواء.

إذن، كيف نفسّر بكاء البتول في هذا الموقف؟

إن بكاء البتول في هذا الموقف، لا يفسر ـ في فهمنا ـ إلا على أساس شعورها بالمسؤولية تجاه أولادها.

المسؤولية، التي لا تقتصر فقط، على رعايتهم صحياً وجسدياً، بل وبذل أقصى الطاقات، لتوفير الرعاية الروحية والخلقية والاجتماعية لهم.

ولا إشكال، في أن من أول الأسس التي تقوم عليها هذه الرعاية، هو توفير الأجواء الصالحة لنمو الشخصية المتناسقة والمتكاملة. وأن ذلك لن يتم، إلا بإبعادهم عن رفقة السوء، ومواطن التهم، ومواطئ الانحرافات. إيماناً منها بأن صديق السوء كالقَيْن[1]، إن لم يحرق ثوبك صدّأه.

على ضوء هذا الوعي لمسؤولية الأم، نفهم بكاء فاطمة لغياب ولديها عنها في ذلك اليوم.

إنها نظرت إلى الموضوع من زاويتين:

الأولى: إنَّ الولدين قد خسرا بغيابهما بعض التوجيه والتأهيل والتربية.

---

(١) القَيْن: الحدّاد.

الثانية: إنها خشيت من أن يحتنكهما بعض رفاق السوء، فيلتقطان منهم بعض ما لا يتناسب مع الخط الذي تنشّؤهما الزهراء عليه، خط الإيمان والاستقامة في القول وفي الفعل.

والذي يؤيد ما ذهبنا إليه، أن أول مكان هرعت إليه فاطمة، هو بيوت النبي ﷺ، تفتش فيها عن ولديها، ثم كان بكاؤها، عندما لم تجدهما هناك. ذلك أنها المكان الوحيد الذي ينسجم مع ما أرادته لهما من مسلك، وما عداه ففيه المحاذير، إلا أن يكون عليهما رقيب.

لفتة وتنبيه

وهنا، لا بد لنا من لفتة ـ في هذه النقطة بالذات ـ إلى ما عليه علاقة الأبوين بالأبناء في مجتمعنا، فماذا نجد؟

غالباً ما نجد آباءً وأمهات ضعيفي الشخصية، تستعبدهم العاطفة. أو منحرفيها، تستعبدهم أنانيَّتهم وغرائزيتهم.

وفي كلتا الحالتين، نرى الأولاد يعيشون بلا رقابة «يستمتعون بالتحلّل من الضوابط، والانفلات من القيود».

«ويستمتعون بلذة الهبوط، وهي بلا شك، متعة للمزاج المنحرف، والكيان المقلوب».

«فمن الثابت، أن الكيان الناقص ـ حين لا يكمّل بالطريق الصالح، ولا يوجّه التوجيه السليم ـ يجنح إلى التكملة من طريق هابط، ويحسّ (بالنضوج والتميّز) و(المتعة) من هذا الطريق. وهذه المتعة، تغري غيرهم من الأولاد، فينجرفون في الطريق. يجدون اللذة المنشودة، والنضوج المنحرف، والتميّز بين الأقران. ويروحون يتمردون على أهليهم، وينفلتون من القيود...».

وحين حدث كل ذلك في مجتمعنا، حين انفلت «الأولاد بلا ضابط، لا يحكمهم أهلوهم، ولا يحكمهم مدرّسوهم في المدرسة، لأن الأبوَيْن قد أفسدا على المدرّس مهمة التوجيه»، حينئذٍ، كثرت الخروق في بنية هذا المجتمع، واتسعت، بحيث استعصى ترقيعها على الراقعين مع كثرتهم، وتنوّع أساليبهم، فتركوه يواجه المصير الأسود، الذي لا بدّ أن يواجهه، وهو الانهيار والهويّ إلى أسفل سافلين.

ولا عاصم من ذلك أبداً، إلا أن يعود الأب إلى ممارسة سلطته كأب، والأم إلى التفرّغ لما خُلقت من أجله، ملكة في بيتها، تمحض رعيّتها ـ أبناءَها ـ حُسْنَ رعايتها، وعنايتها، وتوجيهها. فتنشأ أجيال على أساس مفاهيم جديدة أصيلة، وقيم ثابتة، تطغى بوجودها على ما هو موجود فعلاً من جيل مهتزّ، فاقد لمقومات الشخصية المتوازنة، والإدراك الواعي.

حينئذٍ فقط، يمكن إنقاذ مجتمعنا، من السقوط في الهوة الفاغرة فاها لابتلاعه، والإجهاز عليه.

المسؤولية المُطْلَقَة

وقد علّمتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، في موقف آخر من مواقفها تجاه أولادها، أن مسؤولية الأم بالنسبة إليهم، لا يحدّها زمان، كما أنها مما لا يحدّها مكان.

بل إن الأم الواعية لمسؤوليتها، والمدركة لِدَوْرِها، عليها أن تفكّر فيما يضمن الصلاح لأولادها حتى بعد مماتها.

ولذا نراها عليها السلام، وهي على فراش الموت، تشير على

عليّ عليه السلام بحزم وجزم، بأن يتزوج بعدها من ابنة أختها أُمامة. وليس لها من دافع إلى مثل هذه الوصية المؤكدة، إلاّ معرفة الزهراء، بما تكنّه تلك المرأة لأولادها من عاطفة وحب!!

فتريد لهم، أن يستمر دفق الحنان عليهم، حتى لا يتغيّر بعدها من هذه الناحية بالنسبة إليهم شيء مما أَلِفوه.

شموخ الإيمان

ولا بأس هنا، أن نختم هذا الفصل من حياة الزهراء، بذكر موقف من مواقفها وهي أم. يتجلّى فيه شموخ الإيمان فوق كل قيم الأرض.

ويبرز من خلاله بوضوح، درس يكشف بإيجابية، كثيراً من جوانب الأمومة الممسوخة ـ غالباً ـ في مجتمعنا. العابقة برائحة التراب. المتمرغة في حمأة الرضوخ لضغط الضرورات، والعواطف، والأهواء، ولو على حساب قيم السماء، وخيانة أقدس المقدّسات.

هذا الموقف، يرويه المؤرخون، كما حصل بعد عهد الحُدَيبية[1]، بين المسلمين وقريش، ونَقْضِ المشركين لذلك العهد، بعدوانهم على خزاعة خليفة المسلمين.

حيث[2] جاء أبو سفيان إلى المدينة، يفتش عن واحد من المسلمين، ليجيره عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيستمع منه وساطته.

فذهب إلى شيوخ الصحابة من المهاجرين والأنصار، حتى وصل

---

(١) وقد وقع آخر سنة ست للهجرة.

(٢) راجع ذلك في السيرة النبوية، لابن هشام، ٤/ ٣٨ وما بعدها.

أمره إلى علي عليه السلام ليجيره، فلمْ يفعلوا. فعرّج على بيت فاطمة، فرأى الحسن.

وهنا، انقدحت في ذهن أبي سفيان فكرة.

لم لا يكون الحسن نفسه ـ بلحاظ ما يحتلّه من موقع في قلب جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ـ هو الذي يجيره عنده؟

ولكن كيف. . . ؟

فزيّن له شيطانه أن يستغل ـ كما توهم ـ ، عاطفة الأمومة عند فاطمة، تجاه ولدها. ورغبة الأم في أن يحتل ابنها المركز المرموق، وينال المجد والجاه والسلطان.

فاستحسن ما زيّنه له الشيطان، وما وسوست له به نفسه الخبيثة، فانبرى قائلاً يخاطب الزهراء:

«هل لكِ في أن تجعلي بُنيّك هذا (الحسن)، سيد العرب إلى آخر الدهر. مُريه فيُجيرَ بين الناس. إنها دماء قريش يحقنها. تذكرها له العرب. . . ».

بهذا الأسلوب المعسول المغري، وبهذا المنطق القَبَلي الجاهلي، أفصح أبو سفيان عمّا في نفسه، وسدّد سهمه.

ولكنه عَمِيَ، عن أنه إنما يخاطب أعظم ابنة لأعظم نبي في تاريخ الإنسانية.

عَمِيَ، عن أنه يخاطب إنسانة فَطَمَها بالعلم محمد صلى الله عليه وآله يوم ولادتها. فظن بحكم عَماهُ، أنه يخاطب امرأة كزوجته هند، آكلة الأكباد، ومصّاصة دماء سادة قريش.

وتتابعت في ذهن فاطمة، مواقف هذا الحاقد على الإسلام ورسوله. وأدركت هدفه بفراستها وحدسها.

وبكل وعي الأنثى المسلمة، وصلابة إيمانها، سدّدت إليه سهماً، جعله يترنّح، وينقلب خائباً، يجرّ أذيال الخزي:

«لا يُجير أحدٌ على رسول الله».

وهنا، ينبغي لكل أم أن تستوعب هذا الدرس من موقف فاطمة. فلا تضعف أمام المغريات ـ وما أكثرها في عصرنا الذي نعيش فيه ـ وبخاصة تلك التي تستبطن الجاه الرخيص، الذي قد يكون ثمنه قيمة من القيم، أو واحداً من المقدّسات، تتنازل عنهما.

سواء كان ذلك الإغراء قد وافق هوى الأمومة في أعماقها وعاطفتها. أو أي هوى آخر من أهواء النفس البشرية ونزعاتها.

فواجبها على كل حال، أن تَصْرَع الهوى لتخرج من معركتها مع الشيطان شامخة الرأس، موفورة الكرامة في الدنيا والآخرة.

وواجبها أيضاً ـ بحكم مسؤوليتها كأم ـ أن تُلقّنَ أبناءها وبناتها هذا المبدأ، لتسجل لها ولهم، مواقف البطولة في معركة التحدي، مع كل الالتواءات والانحرافات لمجتمع فاسد.

ـ ٥ ـ
الزهراء الثائرة

تمهيد

الثورة. . .

كلمة، غدا لها في أذهان الناس في عصرنا، مدلول مساوٍ للقسوة والعنف.

وصورة باهتة، لا تسرّ الناظر إليها، ولا تثير ألوانها في نفسه أية ردة فعل إيجابيّة، إن لم نقُل بأنها قد تُحدِثُ فيها ردة فعل سلبية أيضاً.

وذلك، لأنها أصبحت وسيلة للقفز إلى التسلّط، والتحكم في رقاب العباد، بَدَلَ أن تكون منقِذاً لهم مما قد يكونون فيه من ظلم، وما قد يعيشون فيه من حَيف.

وخاصة في هذا النصف الثاني من القرن العشرين، حيث كثر «الثائرون»، وتعددت بكثرتهم «الثورات».

وهي على كثرتها، وإن اختلفت فيما ترفعه من شعارات أخّاذة بالعقول، خلاّبة للأبصار، إلا أنها اشتركت في هدف واحد، هو ما ذكرناه، من تربّع على الكرسي، يتبعه عادةً، سحقٌ للشعارات من قِبَل واضعيها ورافعيها على حدٍ سواء.

من هنا، قد يستغرب القارئ، عندما يطّلع على هذا العنوان: «الزهراء الثائرة».

فكيف كانت ثورة الزهراء؟

إذا كانت الثورة في أذهان الناس، قد اصطبغت بلون الدم، واختلطت بأنين المعذّبين، فما ذلك، إلاّ لأن أدعياء الثورات ـ في الغالِب ـ، ما هم إلاّ زُمَر ـ كما يقول غوستاف لوبون ـ «من ذوي النفوس الغير المستقرة، والغير الراضية، مستعدة للتمرّد على أي نظام قائم. إن هذه النفوس، تثور حباً بالثورة. ولو أن قوة خارقة حققت مطالبها كافة دفعة واحدة، لما ردعها ذلك عن الثورة. إنه يوجد عند هؤلاء غريزة حب السيطرة والتحكّم، والمتع المادية والمعنوية التي يجلبانها، مما لا يمكن الحصول عليه بعمل هادئ.

ويتضح مما ذكره هذا الأخصائي في علم الاجتماع ـ وهو منطقي ـ أن هؤلاء، يكونون عادةً قد فقدوا إنسانيتهم، عندما ماتت فيهم الضمائر، فانقلبوا وحوشاً كاسرة لا تعرف إلا شريعة الغاب، والتخاطب بلغة القوة والعنف...

وأين فاطمة من هذا كله؟

فاطمة، التي نشأت في كنف نبي أُرْسِلَ رحمةً للعالمينَ.

وترعرعت في بيوت أذن الله أن تُرفعَ ويُذكر فيها اسمه، بما هبط بين ظهرانيها من وحي السماء، الذي كان الهدف منه أولاً وآخراً، إنقاذ الإنسانية مما تعاني منه من ظلم الطغاة، واستبداد المستبدين.

ولذا فإن البتول، لم يكن بينها وبين هؤلاء وأمثالهم، أي قدر جامع في الواقع ونفس الأمر.

كما لم يكن لثورتها التي رفعت لواءها، أيّ التقاء مع ما يُسمّى في عصرنا «بالثورات».

أما في المنطلقات فواضح.

إذ إن كل منطلقات ثورة فاطمة، ـ كما سنرى بإيجاز ـ ، إنما كانت تستمد جذورها من السماء وكلماتها، في حين أن منطلقاتِ هؤلاء، لا نراها تستمد إلا من قِيَم الأرض، وقيود التراب.

وأما في الأهداف.

فأين أهدافهم من أهداف ثورة الزهراء؟

إن هدفهم الأكبر، هو الوصول إلى الحكم، على أن يكون الإنسان هو السُلّم للعبور.

في حين أن هدف فاطمة، كان، أن تجعل من نفسها شمعة تحترق، لتنيرَ للبشرية طريق الخلاص.

وأن تكون جسراً، تعبر من على فوقه الإنسانية المعذّبة المضطهدة، إلى واقع جديد، تجد فيه كرامتها، وحياتها السعيدة، الخالصة من ظلال الطغاة، والمستبدين، والغاصبين.

تسليط أضواء

لقد كانت فاطمة، تدرك تمام الإدراك ـ كأي إنسان صادق في مركز القيادة ـ أن الثورة لا تكون ثورة، عندما تحدث من فوق، إذا لم يكن لديها تلك القاعدة على امتداد الأمة.

القاعدة الواعية لمسؤولياتها، المدركة لأبعادها.

وهي لن تكون في مثل هذا المستوى من الوعي والإدراك، إلا إذا كانت تملك قِيَماً فاعلةً فيها، تهزّ أعماق ضمائر أفرادها، وتُحركها في الاتجاه الصحيح.

فالثورة يجب أن تبدأ في مفهوم الزهراء، من داخل نفوس مَنْ تنبثق الثورة لإنقاذهم. وحينئذٍ، لا يتعدى دورُ القائد، دورَ الموجّه لقوى الثورة الهادرة، بشكل يمنعها من الزيغ والانحراف.

ولقد أحسّت فاطمة، بما أوتيت من حصافة وَبُعْد نظر، أن الأمة لم تعد ـ بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ تملك ذلك الضمير الواعي الحي، المؤهّل لضرب الانحراف، لا لموته، وإنما لتأثره بعوامل كثيرة، أبرزها الضغوط التي مارستها بعض الفئات القليلة على الأمة، حتى لنراها تصل في بعض الأحيان، إلى حد الإرهاب المادي والفكري. وعمليّات التزوير، والتبرير، والتضليل، حيث فقدت معه الأمة إلى حدٍ كبير، تلك الرؤية الواضحة، مما أدّى إلى سكوتها على ما جرى في سقيفة بني ساعدة، من مبايعة قام بها بضعة نفر من الناس لأبي بكر (رضي الله عنه)، على حين غفلة من أهل الحلّ والربط، مبايعة، جعلت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، يعترف بخطرها على الإسلام والمسلمين وهو على فراش الموت في كلمته المشهورة:

«إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتَة، وقى الله المسلمين شرَّها، فَمَنْ دعاكم إلى مثلها فاقتلوه»[1].

---

(١) راجع صحيح البخاري، ٨/ ١٦٨. وتاريخ الطبري، ٣/ ٢٠٥.

مع أنه (رضي الله عنه)، كان رأس الحربة في تحققها آنذاك، وأول مَن مدَّ يده مبايعاً لابن أبي قحافة!!؟

إذن، وانطلاقاً من هذه الحقيقة، رأت الزهراء عليها السلام، أن تعيد للأمة ما أوشكت أن تفقده من أصالة. وتعيد إلى أعماقها الجذوة المتأججة من الوعي والإيمان والإدراك. وتعود بها إلى منطلقاتها الأساسية، وذلك بأن تزيل عن العيون ما تراكم من سُجُف الظلام والضلال.

وعن عقولها من صدأ التبلّد والعمى.

فكيف وبأية أساليب عملت الزهراء لتحقيق كل ذلك؟

تحريك في خطين

لقد عملت الزهراء عليها السلام، في سبيل تحقيق ما بينّاه من هدف لتحرّكها، بأسلوبين متوازيين:

أسلوب إيجابي، وآخر سلبي.

الأسلوب الإيجابي

ونعني بالأسلوب الإيجابي، ذلك التحرك، الذي يتخذ صفة الهجوم، مستهدفاً نقاطاً محدّدة ومرسومةً على خارطة الثورة.

والحقيقة إنَّ هذا الأسلوب، قد ركّز عند الزهراء على مستويين من الأشخاص.

المستوى الذي يأتي في قمة السلطة آنذاك، وهو شخص الخليفة المتمثل في أبي بكر (رض) نفسه، ومن يحيط به من أعضاء الحزب

الأموي، الذين عملوا سراً في حياة النبي، وعلناً بعد وفاته، لإيصاله إلى الحكم بأية وسيلة.

والمستوى الأدنى رتبة، وإن كان لا يقل أهمية عن المستوى الأول، باعتباره يمثّل مفاتيح القاعدة الشعبية في الأمة كما يعبّر في منطق العصر.

على المستوى الأول

أما على المستوى الأول، وهو مستوى أبي بكر (رض)، ومن حوله، فقد كان أسلوب فاطمة، واضحاً جلياً لا لبْس فيه ولا غموض.

كان عبارة عن مظاهرة كبرى، أرادتها فاطمة الزهراء في وضح النهار، على مرأى ومسمع من مجتمع يحوي كل طبقات الأمة، ومستوياتها. ذلك أنها تمّت في مسجد أبيها رسول الله ﷺ، في المدينة.

ذلك المسجد، الذي طالما تردّدت في جنباته، وتحت سقفه نبرات صوت النبي الأعظم.

وشهدت باحته هبوط الوحي ونزول القرآن.

وتم على أرضه، اتخاذ أصعب القرارات، وأدقّها، وأخطرها.

وكانت المناسبة: اغتصاب فَدَكْ. وحرمان البتول من وراثة أبيها ﷺ منْ قِبَلِ أبي بكر (رض).

والحقيقة، إنَّ مطالبة الزهراء بفَدَك، لم يكن مقصوداً في حد ذاته، لأنها كانت تعلم، بأن مقاطعة فدك، لن ترجعها إليها مطالبة. بعد أن اغتُصبت منها ـ نتيجة قرار سياسي ـ بهدف القضاء على الموارد المالية

الضخمة، التي كانت ستوفّرها هذه المقاطعة الخصبة في الحجاز، لمن هم أصحاب الحق في منصب الخلافة، الذي اعتلاه غيرهم.

وإنما كان مقصودها، أن تُحدِث في الأمة تلك الصدمة، التي تعيد إليها ما فقدته من حرص على الحق، وحدبٍ عليه. وأن تجلو ما رانَ على قلوب أفرادها من فتور، وغفلة، وبلادة، أو وَجَل.

كما أرادت بمنطقها، أن تكشف الزيف، وتشخّص الظالم، وتعرّي المتستر بشريعة الله وأحكامه، ليبدو على حقيقته للأمة، إنساناً هو أبعد ما يكون عن الفهم لتلك الشريعة وهذه الأحكام.

ولتسجّل بالتالي على صفحات التاريخ، التمرّد على كل ما هو ظالم، وكل ما هو جور واغتصاب.

فتهتك ستر التعتيم الإعلامي، الذي فرضته الفئة التي قفزت إلى السلطة على حين غفلة، على الأمة ككل.

الخطاب الوثيقة

يروي المؤرخون، إنها عليها السلام، لما بلَغَها تصميم أبي بكر (رض) على منعها حقَّها في فدك: «لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها. وأقبلت في لُمّةٍ من حَفَدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها. مشيتها مشيةُ رسول الله صلى الله عليه وآله...».

فدخلت المسجد، وكان فيه الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه)، مع حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فاضطرب المجلس كلّه لدخولها. ثم ابتدأت في مرافعتها التي كانت بحق، وثيقةً تاريخية في خطاب.

خطاب، بيّنت فيه الزهراء بوضوح، أهداف الإسلام ومنطلقاته. وموقعَها وموقعَ زوجها من تلك الأهداف، وهذه المنطلقات. وألمَحَت إلى مواقف الحزب الأموي بمن فيه ذاك الذي يمسك بزمام الخلافة اليوم، في منبثق الإسلام وإشراقته من الإسلام ونبي الإسلام. ومحاربتهم له وانقضاضهم عليه، دون تهيّب منها ولا وَجَل.

ولا بد لنا هنا، من أن نثبت مقاطع من تلك الوثيقة، للاستئناس بها على ما ادّعيناه.

«أيها الناس: اعْلَموا أني فاطمة، وأبي محمد. فإن تَعْزوه[١]، تجدوه أبي دون نسائكم. وَأَخَ ابن عمي[٢] دون رجالكم... وكنتم على شفا[٣] حفرة من النار. مذقة[٤] الشارب، ونُهْزة[٥] الطامع، وقبْسَة[٦] العَجْلان، وموطئ الأقدام. تشربون الطَرْق[٧]، وتقتاتون القدّ[٨] والورق أذلةً خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله بأبي محمد بعد اللَّتيّا والتي... كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نَجَم[٩] قرن للشيطان، أو فغرت فاغرةٌ للمشركين، قذف أخاه[١٠] في

---

(١) أي تنسبوه.
(٢) تعني الإمام علياً عليه السلام.
(٣) أي حرف الحفرة من النار وحدّها.
(٤) يعني شربة من لبن ممزوج بكثير من الماء.
(٥) النُهزَة: الفرصة.
(٦) قبسة العجلان: مَثَل في السرعة والاستعجال. حيث يشبّهون المستعجل بالمقتبس شعلة ليصطلي، لأنه إذا دخل الدار لا يمكث فيها إلا ريثما يحصل على تلك الشعلة.
(٧) الطَّرق: الماء الذي خوضته الإبل وبوّلت فيه وبعَرت.
(٨) القدّ: اللحم المقطّع المجعول في الهواء ليجفّ.
(٩) نَجَمَ: ظهر وطلع.
(١٠) تعني علي بن أبي طالب عليه السلام.

لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها[١] بأخمصه[٢]، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون، آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتنكصون عند النزال».

«فلما اختار الله لنبيّه دار أنبيائه، ظهرت فيكم حساكة[٣] النفاق، وَسَمَلَ[٤] جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلّين، وهدف فنيق[٥] المبطلين، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، فَوَسَمْتُم غيرَ إبلكم، وأوردتموها غير شربكم. هذا والعهد قريب، والكَلْمُ[٦] رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين...».

«وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، أَفَحُكْمَ الجاهلية يبغون، أفلا تعلمون، بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية إني ابنته... أيها المسلمون، أأغلب على إرثي... يا بن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي. لقد جئت شيئاً فريّاً، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتمون وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٧]. وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى إذ يقول: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى

---

(١) الصِماخ: الأذن، أو خرقها الباطن الذي يفضي إلى الرأس.
(٢) أخمص القدم: ما لا يصيب الأرض من باطنها.
(٣) الحقد والعداوة.
(٤) سَمَلَ: رثّ وأخلَق.
(٥) الفنيق: الفَحْل.
(٦) الكَلْم: الجرح.
(٧) النمل/ ١٦.

وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[١]. وقال: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٢]. وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٣]. أَفَخَصَّكُم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم تقولون أهل مِلّتين لا يتوارثان، أَوَلَسْتُ أنا وأبي من ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فَدُونَكَها مخطومةً[٤] مرحولة، تلقاك يومَ حَشْرِك، فنِعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون».

ثم التفتت نحو الأنصار وقالت:

«أيهاً بني قيلة[٥] أَأُهْضَمُ تُراث أبي وأنتم بمرأى مني وَمَسْمَع، وأنتم ذوو العدد والعدة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، فأنّى حرتُمْ بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام. ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخَفْض، وأبعدتم مَنْ هو أحق بالبسط والقبض، وَرَكَنْتُم إلى الدّعة. فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد».

ثم اختتمت خطابها بقولها:

«ألا وقد قلتُ ما قلتُ، على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغَدْرَة التي اسْتَشْعَرَتْها قلوبكم. ولكنها فَيضة النفس، وبثّة الصدر،

---

(١) مريم/ ٦.
(٢) الأنفال/ ٧٥.
(٣) النساء: ١١.
(٤) المخطومة: الناقة، يشدّ الخطام وهو الحبل في عنقها ويُثنى في خَطْمها أي أنفها لتقتاد به.
(٥) المقصود الأوس والخزرج، أو المهاجرون والأنصار.

وَنَفْثَةُ الغيظ، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دَبِرةَ الظهر، نقبةَ الخف، باقية العار، موصولة بنار الله المؤصدة، فبعين الله ما تفعلون. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». . .

على المستوى الثاني

هذا كله، كان عيّنة مما قامت به الزهراء على المستوى الأول. فما هو تصرّفها على المستوى الثاني ـ يا ترى ـ؟

لقد تناقل المؤرخون، إنَّ فاطمة، كانت تقوم بزيارات سريّة لشيوخ المهاجرين والأنصار. الهدف منها وضعهم أمام مسؤولياتهم، فيما يتعلق بانحراف الأمة عمّا خطّط لها رسول الله ﷺ، وإفهامهم أنهم المسؤولون أمام الله، وأمام التاريخ، عن مثل هذا الانحراف، إن هم سكتوا عمّا يجري حولهم من ظلم واغتصاب.

وبهذا تكون الزهراء عليها السلام، قد عملت كل ما في وسعها، لتهيئة الأجواء لِتَحَرُّك واسع النطاق، يكون لهذه الشخصيات الإسلامية، الأثر الكبير في إنجاحه، بما يملكون من رصيد شعبي على صعيد القاعدة.

محاولة تطويق

وهنا، أحسَّ أبو بكر (رض) ومن معه، بخطورة تحرّك الزهراء، وشعر بأن ما بذله الحزب الأموي طيلة سنين، سوف يتهاوى في أيام، أمام ضربات فاطمة.

وإحساسه وشعوره، كانا نابعَيْن من معرفته بمركز الزهراء، وموقعها في الأمة الإسلامية، خاصة، وأن الناس ما زالوا حديثي عهد بوفاة

النبي ﷺ، وما زالت وصيته تتردد أصداؤها في قلوبهم وعقولهم: «إني مخلّف فيكم الثقلين، كتابَ الله وعترتي أهل بيتي...»[1].

وعليه فماذا يصنع أبو بكر (رضي الله عنه)؟

رأى بعد التشاور مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، أن يسترضني فاطمة، علّها تغضي أو تسكت.

كانت النتيجة، إنها أبت استقبالهما، ورفضت أن تكلّمهما فرجعا بخُفَّي حُنَيْن.

وهكذا، أثبتت فاطمة أن الثائر الصادق، لا ترضيه الترضيات، ولا أنصاف الحلول، وإلا لم يكن ثائراً، ولا صادقاً...

وأثبتت الزهراء بموقفها الصلب هذا، أن المرأة عندما تدرك موقعها وتثق بحقّانية موقفها، وتعمل بمقتضاه، تكون عظيمة تتهيّبُها أعلى السلطات. وتسعى إليها تطلب الصفح، وترجو الود، وتطمع بالغفران، وتحلم بالسكوت.

أما حين تتنازل عن دَوْر هو من صميم اختصاصاتها، وتتصرف وفق عواطفها، فتعطي لنفسها دوراً لم تؤهّل له، فإنها تجعل من نفسها دُميةً يتقاذفها الانتهازيون الطامعون. وتكون مخلوقاً متطفلاً، لا أرضاً قَطَعَ ولا ظهراً أبقى.

فهل لك يا ابنة الإسلام، أن تعي الدرس، فتتمثلي إيجابية

---

(١) هذا مما تواتر نقله عند السنّة والشيعة، فراجع صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبي طالب. ومسند الإمام أحمد، ٤/ ٣٦٦. وسنن البيهقي، ٢/ ١٤٨ و٧/ ٣٠. وسنن الدارمي، ٢/ ٤٣١. والمتقي الهندي في كنز العمّال، ١/ ٤٥. وسنن الترمذي، ٢/ ٣٠٨. وأسد الغابة لابن الأثير الجزري، ٢/ ١٢. وغيرهم.

الزهراء، في مواقف بطولة، أمام حكّام ومتسلّطين، وما أكثرهم في عصرك على كل صعيد، لتكوني بحق امتداداً عبر الأجيال لزهراء فَدَك، لكي تمتد بذَوْرها لتتحول إلى رمز للعطاء، لا تحدّه حدود في المكان، كما لم يحدّه زمان...؟

الأسلوب السلبي: البكاء

وتعبيرنا عن البكاء بالأسلوب السلبي، لا تعني السلبية بمدلولها الشائع، والذي يستبطن التخاذل والضعف أمام الأحداث.

بالعكس، إنما عَنَيْنا به فقط، كونه أسلوباً من أساليب الثورة، التي لا تَتَّسم بالهجومية، وهذا الأسلوب، قد يستبطن ـ كم سنرى ـ ، قوةً دافعةً ومحركةً لعواطف الأمة، التي إن قُدّر لها أن تتفاعل، فإنها تشكّل قنبلةً موقوتةً، إذا ما انفجرت، فسوف تزلزل كل شيء، وتحطّم أمامها كل ما تصادفه.

فبكاء الزهراء إذن ـ كأسلوب ـ كان مدروساً، بشكل يؤلّف عنصراً من العناصر الرئيسية، التي تصبّ كلها بالتالي، في مجرى الهدف الذي رسمته الزهراء لِتَحَرُّكِها، في اتجاه تَعْرية الحكم، وبيان لا مشروعيته.

المبكي الأول

ويروي المؤرخون، إنَّ فاطمة عليها السلام، بعد أن قامت بتظاهرتها الكبرى تلك في مجلس أبي بكر (رض)، عادت إلى بيتها فالتزمته، باكية فيه أكثر أوقاتها، حتى ضجّ من بكائها أهل المدينة، فكثر البكّاؤون، وابتدأ البكاء ـ كأسلوب من أساليب ثورة فاطمة ـ يؤتي ثماره التي من

أهمّها، إرجاع الأمة إلى جذورها، التي تدفعها حتماً إلى التعاطف مع صاحب الحق الأصيل، والتفاعل مع أفكاره وأهدافه.

بيت الأحزان

وعندما تحقّق لفاطمة ما أرادت ـ كمرحلة أولى ـ حاولت أن تنتقل بأسلوبها من مكانها الذي هي فيه، إلى مكان آخر، فاختارت قبر أبيها رسول الله ﷺ، وقبورَ الشهداء.

وكان ذلك ـ في اعتقادنا ـ أمراً مدروساً أيضاً، لأنه سوف يقوّي من ارتباط الأمة بذكرياتها ومقدّساتها، وسوف يشدّها أكثر، إلى التفاعل مع تحرّك الزهراء وتوجّهاتها.

فكانت تأخذ بيد حسن وحسين، فتجلس على قبر أبيها ﷺ، ثم تأخذ قَبَضاتٍ من تراب القبر تشمُّها، ثم تبدأ بالنحيب والشكوى، مواظبةً على ذلك إلى أن يجنّ الليل، مما حدا بعلي عليه السلام أن يبنيَ لها ما سمّي فيما بعد: ببيت الأحزان[١].

---

(١) وقد أراد البعض ممن أشرنا إليه في هوامش سابقة، كعادته في الانسياق وراء أوهامه وتخبطاته لنفي البديهيات وإنكار الثابتات لحاجة في نفس يعقوب إلى إنكار وجود ما يسمى ببيت الأحزان، مع أنه مما ذكره كحقيقةً ثابتة الرحّالة العربي ابن جُبَير في كتابه بقوله عنه وهو يصف موقعه في جهة موقع الحسن والعباس: ويلي القبة العباسية بيت فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ويعرف ببيت الحزن، يقال: إنه هو الذي آوت إليه والتزمت الحزن فيه منذ وفاة أبيها إلى أن لحقت به ﷺ. ومن المعلوم أن ابن جبير وجد في القرن السادس الهجري، وتوفي أوائل القرن السابع (٦١٤ هـ). فراجع كتاب وفاء الوفاء للسمهودي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٣/ ٩١٨. بل يشهد الإمام شرف الدين في كتابه النص والاجتهاد بوجود بيت الأحزان وعاينه بنفسه حيث قال في الصفحة ٣٠٢ منه: وكنا سنة ١٣٣٩ تشرّفنا بزيارة هذا البيت. وذكره أيضاً في الصفحة ٥٥ من كتابه: كشف الارتياب، الطبعة الثانية. كما يذكر الحر العاملي في المجلد ٢ من وسائله، الباب ٨٧ من أبواب الدفن رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أن فاطمة عليها السلام كانت أحد البكّائين الخمسة.

الثائرة بعد الموت

وكأنّ فاطمة، أرادت أن تضمن لثورتها أن تتفاعل، وتحقق ذروة النصر حتى بعد موتها.

وهذا شأن الثائر الحق، حيث تكون ثورته بصدق، من أجل ما يأتي من أجيال بعده، بأمل أن تتحقق مبادؤه ولو بعد مئات السنين.

لا أن ينتظر جنيَ ثمار مواقفه بشكل سريع وآنيّ، إذ يكشف حينذاك عن أنه ليس ثائراً، بل هو لا يعدو أن يكون مجرد مغامر ونهّاز فُرص.

وعلى ضوء ما أوضحناه، نفهم ذَيْنك الموقفين اللّذين اتخذتهما فاطمة وهي على فراش الموت، حيث ضمنتهما حرصها على استمرارية ثورتها التي بدأتها على الانحراف في حياتها حتى بعد موتها:

الأول: موقفها الغاضب والصريح، في مخاطبتها لنساء المهاجرين والأنصار، عندما جئنَ يَعُدنها وهي في تلك الحال، ذلك الخطاب، الذي كان مشابهاً لخطابها الذي تفوّهت به في مجلس أبي بكر (رض).

الثاني: وصيتها التي أوصت بها علياً عليه السلام قبل أن تلفظ الروح:

«أُوصِيكَ أن لا يشهد أحد جنازتي، من هؤلاء الذين ظلموني، فإنهم عدوّي وعدوّ رسول الله، ولا تترك أن يصلي عليّ أحد منهم، ولا من أتباعهم، وادفنّي في الليل، إذا هدأت العيون، ونامت الأبصار...».

عطاء الثورة

وهكذا كان، وتحققت ثمار فاطمة بالتدريج.

فكانت الثورة على عثمان من نتائجها البعيدة.

ثم رجع الحق إلى نصابه، عندما انثالت الأمة على ابن أبي طالب تبايعه بالخلافة، ولم يكن ذلك منها، إلا مظهراً من مظاهر تأكيدها للنص عن رسول الله ﷺ بإمامته، حيث مُنع من ممارستها.

ثم كانت ثورة كربلاء، بقيادة من اغتذى بلبن الثورة على الظلم من أمه الزهراء، بقيادة سيد الشهداء عليه السلام.

وهكذا يكون القضاء على الصنم الأموي من نتاج تحرّك فاطمة.

ثم أعيدت فدك إلى أصحابها، وكانت إعادة فدك ترمز إلى معنى كبير، يكمن وراء حبّات ترابها، وتحت ظلال نخلاتها.

ذلك المعنى يصرخ، بأن الظلم لا يدوم، وإن دام دمّر، ولن يضيع حق وراءه مُطالِب...

- ٦ -

فقرات من كرّاس

وقد أورد ابن أبي الحديد في شرح النهج[1] ما يلامس ما نحن فيه. فقال:

«وحضرت عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد البصري في سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد، وعنده جماعة، وأحدهم يقرأ في الأغاني لأبي الفَرَج، فمر ذكر المغيرة بن شُعْبَة، وخاض القوم، فذمّه بعضهم، وأثنى عليه بعضهم، وأمسك عنه آخرون».

ثم ذكر ابن أبي الحديد، أن أحد الحاضرين قال:

«الواجب الكفّ والإمساك عن الصحابة، وعما شَجَر بينهم. فقد قال أبو المعلي الجُوَيْني[2]: إن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك».

ثم ذكر ابن أبي الحديد، أنه بعدما عرَض هذا الرجل رأي الجويني مع حججه، أخرج أبو جعفر البصري - صاحبُ المجلس - من بين كتبه

---

(١) الجزء العاشر، ص ١٠ وما بعدها. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٣.

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، يلقّب بإمام الحرمين، فقيه شافعي، وجُوَين ناحية من نواحي نيسابور في إيران. ت (٤٧٨ هـ).

كرّاساً، أخبر أنه عثر عليه لبعض العلماء نقضاً وردّاً على ما اختاره الجويني فيما اختاره لنفسه من هذا الرأي.

ثم يخبر ابن أبي الحديد فيقول: «قرأناه في ذلك المجلس، واستحسنه الحاضرون» ثم ذكر خلاصته.

وقد وجدتُ فائدة بنقل بعض فقرات منه لها نحو تعلّق فيما نحن بصدده من موضوع الزهراء عليها السلام، أنقلها كما أوردها شارح النهج حرفياً:

«وكيف أدخلت العامة أنفسها في أمر عائشة، وبرئت ممن نظر إليها... ولَعَنَتْهُ بكشف سترها، ومنعتنا نحن عن الحديث في أمر فاطمة، وما جرى لها بعد وفاة أبيها.

فإن قلتم: إن بيت فاطمة إنما دُخِل، وسترها إنما كُشِفَ، حفظاً لنظام الإسلام، وكَيْلا ينتشر الأمر، ويُخرج قومٌ من المسلمين أعناقهم من رِبقة[1] الطاعة ولزوم الجماعة.

قيل لكم: وكذلك سِتْر عائشة إنما كُشِف، وهودجُها إنما هُتك، لأنها نَشَرَت حبل الطاعة، وشقّت عصا المسلمين، وأراقت دماء المسلمين من قَبْل ووصل علي بن أبي طالب عليه السلام إلى البصرة، وجرى لها مع عثمان بن حُنيف، وحكيم بن جَبَلة ومن كان معهما من المسلمين الصالحين، من القتل وسفك الدماء، ما تنطق به كتب التواريخ والسِّيَر.

فإذا جاز دخول بيت فاطمة لأمر لم يقع بعدُ، جاز كشف ستر عائشة على ما قد وقع وتحقق.

---

(١) رِبقة الطاعة: عِزقُها.

فكيف صار ستر عائشة من الكبائر التي يجب معها التخليد في النار، والبراءة من فاعله، ومن أوكد عرى الإيمان، وصار كشف بيت فاطمة، والدخول عليها منزلها، وجمع حطب ببابها، وتهدّدها بالتحريق من أوكد عرى الإيمان، وأثبت دعائم الإسلام، ومما أعزّ الله به المسلمين، وأطفأ به نار الفتنة، والحُرمتان واحدة، والستران واحد.

وما نحبُّ أن نقول لكم: إن حرمة فاطمة أعظم، ومكانَها أرفع، وصيانتَها لأجل رسول الله ﷺ أَوْلَى، فإنها بِضْعة منه، وجزء من لحمه ودمه، وليست كالزوجة الأجنبية التي لا نَسَب بينها وبين الزوج، وإنما هي وصلة مستعارة وعقد يجري إجارة المنفعة. وكما يُملك رقّ الأمة بالبيع والشراء ولهذا قال الفرضيون[١]: أسباب التوارث ثلاثة: سبب، ونسب، ووَلاء، فالنسب القرابة، والسبب النكاح، والولاء ولاء العتق، فجعلوا النكاح خارجاً عن النسب، ولو كانت الزوجة ذات نسب لجعلوا الأقسام... قسمين.

وكيف تكون عائشة، أو غيرها، في منزلة فاطمة، وقد أجمع المسلمون كلهم، من يحبّها، ومَن لا يحبها منهم، أنها سيدة نساء العالمين؟!

وكيف يَلزمنا اليوم حفظ رسول الله ﷺ زوجته، وحفظ أم حبيبة في زوجها، ولم تُلزم الصحابة أنفسها حِفظَ رسول الله ﷺ في أهل بيته...» إلخ.

---

(١) الفرضيون: العاملون بالفروض والمواريث.

- ٧ -

خاتمة المَطاف

وبعد . . .

يا بنات الزهراء، وأخواتِ الإيمان.

هذه هي فاطمة.

تجدْنَ فيها:

القدوة الصالحة السّامقة.

تجدْن فيها:

البنتَ البارّة حتى لتكون أم أبيها بلا مطمع.

والزوجةَ الصابرة العفيفة بلا رياء.

والأمَ الرؤوم الحنونَ بلا ضعف.

والمرأةَ الثائرة على الظلم، بوعي وإدراك، بلا هوادة ولا مهادنة.

هذه هي البتول.

النموذج الذي يجب أن يُحتذى:

لكل امرأة في الأرض، تفتّش عن دور لها عظيم.

ولكل أنثى، تبحث عن سعادةٍ حقيقية.

سعادة، لا تشوبها رائحة الطين والتراب. بل سعادة ترفرف بأجنحة تربطها بالسماء، ولا تقطعها عن الاتصال بعالم الأرض.

هذه هي سيدة نساء العالمين.

الصورة التي رسمت خطوطَها ومعالمَها يدُ الله، لتكون تحفة رائعة، تنقشها كل فاطمية ـ لا على قطعة كناڤا تعلّقها في صدر صالون منزلها ـ .

بل على صفحة قلبها، تستلهم منها العزة والخلود والكبرياء.

وأنتِ يا سيدتي

يا قلبَ النبي، وروحَه التي بين جنبيه

كم ظُلمتِ فَصَبَرْتِ لا في ضَعْف.

وصبرتِ فاحتَسَبْتِ لا عن ذل.

يا ابنة الخُلد.

يا ابنة البَقيع.

يا كبرياء النبوة.

يا أمّ الحسن والحسين.

نستشفع بك إلى الله، في هذه اللحظات، ليجعلَ من كل أنثى في أمتنا تنتسب إليك: زهراء تتمثلك في حياتها.

فهو الكريم وهو المجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فهرس المصادر

- القرآن الكريم.
- تفسير مجمع البيان، للطبرسي.
- التفسير الكبير، للفخر الرازي.
- تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي.
- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للحر العاملي.
- كنز العمال، المتقي الهندي.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- مستدرك الحاكم.
- العهد القديم.
- شرائع الإسلام، للمحقق الحلّي.
- جواهر الكلام، لمحمد حسن النجفي.
- منهاج الصالحين، للإمام السيستاني.
- بدائع الصنائع، للكاساني.
- الملل والنِحَل، للشهرستاني.
- السيرة النبوية، لابن هشام.
- روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طبارة.
- ظلال القرآن، سيد قطب.
- علم وصف الاجتماع، هربرت سبنسر.
- الزواج، زهدي يكن.
- مشكلات الأسرة والتكافل، د. محمد البهي.
- دائرة المعارف، فريد وجدي.

- الفكر الإسلامي الحديث وصلته... د. محمد البهي.
- المستشرقون والإسلام، د. حسين الهواري.
- البحار، العلامة المجلسي.
- المسائل المنتخبة، الإمام الخوئي.
- ذخائر العقبى، محب الدين الطبري.
- شرح المواهب، للزرقاني.
- الصواعق المحرقة، لابن حجر العسقلاني.
- نهج الحق، للعلامة الحلّي.
- آية التطهير في أحاديث الفريقين، علي الموحّد الأبطحي.
- مرآة العقول، للمجلسي.
- المناقب، الخوارزمي.
- مجمع الزوائد للهيثمي.
- أصول الكافي، الكليني.
- نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي.
- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب.
- جواهر المطالب، ابن الدمشقي الشافعي.
- تاريخ الطبري.
- أُسْدُ الغابة، ابن الأثير الجزري.
- رحلة ابن جبير.
- النص والاجتهاد، الإمام شرف الدين.
- كشف الارتياب، الإمام شرف الدين.
- المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي.
- مجلة حضارة الإسلام، المجلد الثاني، ١٩٦٨.
- مجلة المنار، رشيد رضا، المجلد الرابع، أيار ١٩٠١.

الفهرس